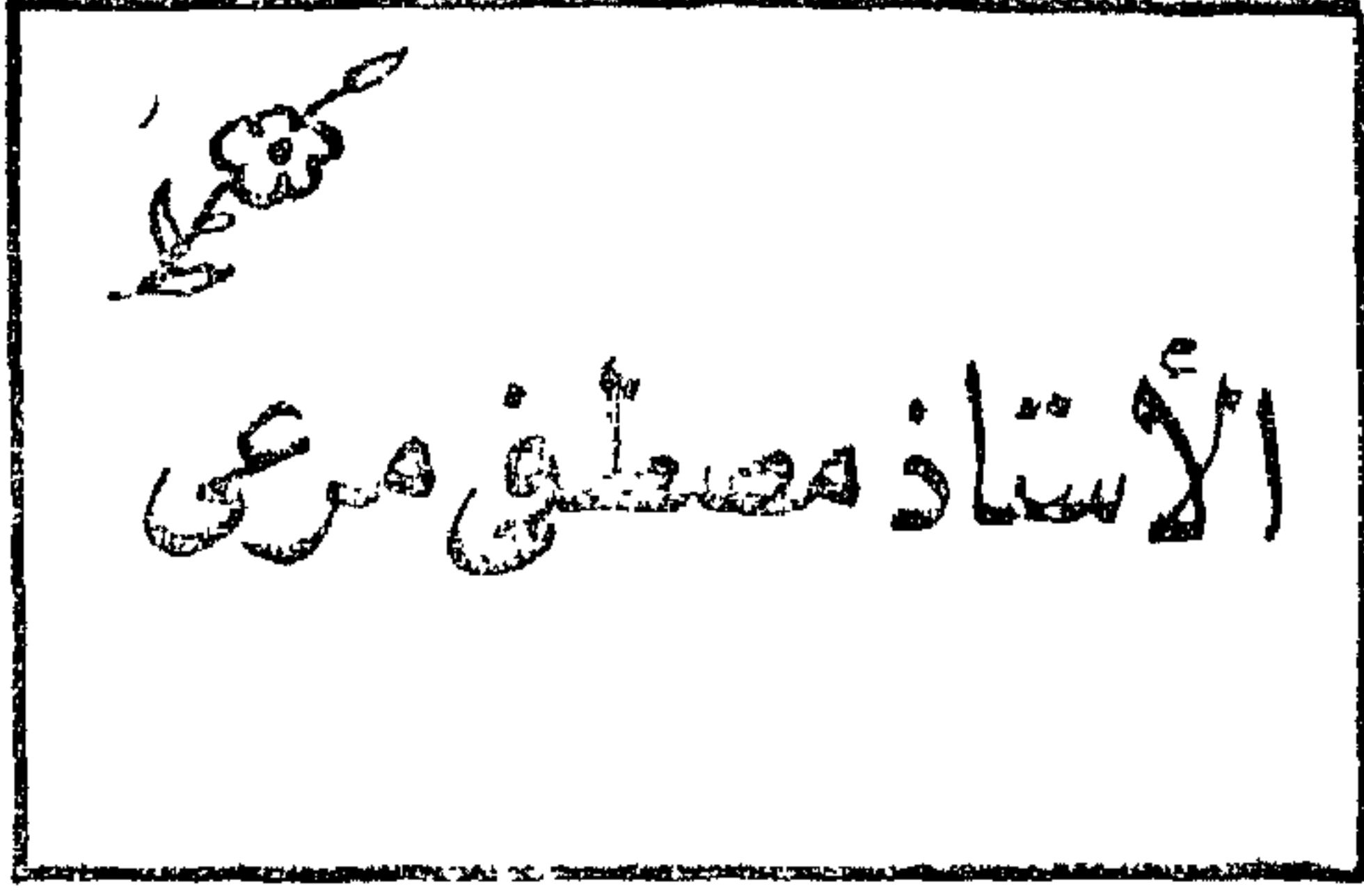




في الساعة الحادية عشرة من صباح الأربعاء ١٢ من ذي القعدة سنة ١٣٩٣ هـ
(الموافق ٥ من ديسمبر سنة ١٩٧٣ م) أقام المجمع بداره بالجيزة حفل استقبال لمغسوه
الجديد الأستاذ مصطفى مرعى . وفيما يلي ما القى في الحفل :

كلمة الافتتاح للأستاذ زكى المهندس في استقبال :



وزير يسبب استقالته من الوزارة بأسبابها
الحقيقية ، فقد ألغنا من الوزراء إذا استقالوا
من الوزارة عللوا هذه الاستقالات بتلك
العبارات التقليدية المألوفة وهي « لأسباب صحية »
ولكن الزميل مصطفى مرعى وضع النقط
فوق الحروف ، وعلل استقالته بعدم التعاون
مع رئيس الوزراء ، وإذا لم تخفى الذاكرة
فإنه قد اتهم رئيس الوزراء بالتزوير في أوراق
رسمية ، وهذا موقف شجاع لم يكن لنا
عهده .

ثم يجب ألا يغيب عنكم أيتها السيدات
والسادة أن بينى وبين الزميل مصطفى مرعى
علاقة وثيقة ، وصلة مؤكدة ؛ ليست هي صلة
المجمع ولا العلم ، ولا الزمالة ، ولكنها صلة
الطربوشية ، فكم تمنيت أن أرى في المجمع
زميلاً يشاطرنى تلك العلامة المميزة ، وما قد
تحققت أمنيته ؛ رحم الله أياماً كنت أرى فيها

سيدتى ، سادتى

إنه ليسر المجمع كل السرور أن يستقبل
اليوم زميلاً جديداً ، وعلمنا من أعلام القانون
هو الأستاذ مصطفى مرعى ، لقد كان من
المفروض أن يستقبل الزميل خلال الدورة
الجمعية الماضية ، ولكن لأسباب خارجة عن
إرادته وإرادتنا تأجل استقباله إلى اليوم ،
والمجمع إذ يهنئ الزميل بما نال من ثقة وتقدير
ليسعده كل السعادة أن يرى كفاية علمية
عظيمة تضاف اليوم إلى كفاياته ، وأن يرى
نشاطاً جديداً يلتقى بنشاطه ، فكذلك كان المجمع
وما زال وسيظل دائماً مثابة للثقافات العالية ،
وملتقى للكفايات الممتازة .

والزميل مصطفى مرعى ليس غريباً علينا ،
فكلنا ما يزال يذكر له تلك المواقف الوطنية
العظيمة داخل البرلمان وخارج البرلمان ، وفي
الوزارة وخارج الوزارة ؛ ولعله كان أول

الطرايبش في الجمع بقدر عدد الأعضاء ،
وبقدر عدد الموظفين ، ولكني أصبحت فإذا
الجمع ليس فيه إلا طربوش واحد يوحد الله .

فلمنأ صديقي الأستاذ مصطفى مرعى بانضمامه
إلى الأسرة الجمعية ، ومرحبا به في مجمع
الحالدين :

أما الآن أيتها السيدات والسادة فسيتولى
استقبال الزميل الأستاذ الحليل عبد العزيز

محمد عضو الجمع ، ويليه الصديق الأديب
الأستاذ ثروت أباطة فيلقى كلمة كان المرحوم
الأستاذ عزيز أباطة طيب الله ثراه - قد
أعدها لاستقبال زميله وصديقه الأستاذ مصطفى
مرعى :

ثم يليهما الزميل الحديد الأستاذ مصطفى
مرعى فيقول كلمته عن سلفه المرحوم
الدكتور محمد عوض محمد ، فليتفضل
الزميل الأستاذ عبد العزيز محمد مشكورا .

●●● كلمة الأستاذ عبد العزيز محمد :

السيد الرئيس - أيها السادة :

أشعر بسعادة غامرة إذ أقدم اليوم كبيرا
من أساطين رجال القانون ، جال في جميع
ميادين القانون وتسهم القسم فيها جميعا .. من
محاماة وقضاء ، وفقه ، حتى إذا بلغ في ذلك
المدى تصدى للشئون العامة فحمل أعباءها ،
وكافح في سبيلها ، وكان له في ذلك مقام
معلوم . . . وبعد ، فهو من صفوة رجال
الفكر المعاصرين . . . شخصية لا شك فذة
متعددة الجوانب - وسأحاول جاهدا في هذا
المجال المحدود ، أن ألم إلاما سريعا موجزا
ببعض هذه الجوانب العديدة وإن كنت أشعر
أنه ليس من اليسير أن أقدر ما يجب أن أذكر
وما أدع .. فأما صفحات جديرة بالنشر
كاملة ، ولكن يضيق المجال عن ذكر شيء
من التفصيل والإفاضة .

ولد الزميل الفاضل في ١٨ من يونية سنة
١٩٠٢ بالجزيرة الخضراء مركز فوه ، وقد
تجالت مواهبه مبكرة . . فهو دوما في مقدمة
المبرزين في الدراسة وذلك في جميع مراحل
التعليم . . . وكان هذا هو شأنه حين حصل
في سنة ١٩٢٣ على شهادة الليسانس في
الحقوق ، وقد كان تفوقه يؤهله للالتحاق
بالنيابة العامة ، ولكنه أثر مجالا أشق محفوفا
بالمخاطر والمصاعب . . مليئا بالعقبات ، وهو
مجال المحاماة وقد زاد عليه هذا الطريق وعورة
أنه لم يشأ أن يدخل هذا الميدان كما يدخله أي
حاميل لإجازة المرور بل دخله بآمال كبار
دخله على أن يجد له مكانا في الصدر . .
وكان هذا يعد طموحا بعيد المثال . . ذلك أن
المحاماة إذ ذاك كانت تزخر بأعلامها الحالدين
الذين عاصروا نشأتها الأولى ، وكان لهم

الفضل في رفعة مكانتها - ولكن الزميل
اقتحم الطريق بنفس مطمئنة وخطى ثابتة
يؤنس عزم صادق ، وجد صارم ، وعاونته
مواهب فذة . فلم تمض سنوات قليلة حتى
ذلت الصعاب وأدرك مكانا مرموقا في مهنته ،
على أن مكانته لم تبلغ شأوها الحق إلا بعد
أن زاول المهنة في القاهرة في سنة ١٩٣٦ بعد
أن استقال من القضاء وعاد إلى مجاله المفضل
فأصبح بعد قليل على رأس الصف الأول مع
شيوخ المهنة وأعلامها ، ولا غرو فقد أحب
المحاماة ، وقدر بسمو رسالتها فوهبها بكل
صدق وإخلاص روحه وقلبه ، فخلقت عليه
مجدها ، وجازته إحسانا بإحسان ..

وقد كانت مواهبه لا تبارى ، ومثله
العليا التي التزمها هي الشعلة التي أضاءت له
معالم الطريق .

ولما لني تقديره للمحاماة فيما سطره في
صدر كتابه الذي ألفه ودفن في القضاء إذ جعل
إهداءه للمحاماة ، واصفا إياها بأنها مهنة الكرامة
والكفاح والحرية ، والواقع أن هذه الكلمة
تعبر تعبيراً صادقا عما التزمه هو في أداء
رسالته من مثل تزمتم في الحرص عليها فبلغ
ما بلغ ،

ثم تلت بعد ذلك فترة بعد فيها عن المحاماة
من سنة ١٩٣٩ حتى سنة ١٩٤٨ ، كان يشغل
فيها وظائف مختلفة ، إلى أن عاد للمحاماة سنة
١٩٤٩ ، وظل بها حتى سنة ١٩٥٩ حيث
أثقل العمل كاهله ، فقد كان المورد العذب

الذي كثر عليه الزحام ، ولم يستطع أن يرد
قاصدا يبغي حقا ، وهو القائل : إن المحاماة
مروعة ونجدة ، فبالذلك من صحته ، فاضطر
مكرها لاعتزال العمل في المحاماة ، بعد أن
ظل يمارسها نحو ربع قرن من الزمان ، خلف
فيها ذكرى لازال يتحدث بها زملاؤه في
ندواتهم كلما طاب لهم أن يتحدثوا عن أجداد
المحاماة ، وحملة مشاعلها - كما ترك مثلا لمن
يبغي في المهنة علواً .

على أن اعتزال الزميل العمل في المحاماة
في سنة ١٩٥٩ لم يكن - وما كان يمكن أن
يكون - إلى فراغ ... فقد عكف على هوايته
المفضلة وهي الإحاطة بشئ ألوان المعرفة ...
يطلع ويدرس ويتحقق ، حتى لقد أضحي
موسوعى المعارف .

ولا أنسى محاضرة قيمة ألقاها بعد اعتزاله
- عن العلم والفلسفة - أحاط فيها بهذا
الموضوع الدقيق إحاطة تنم عن التعمق وسعة
الأفق ، وتدل على أن ملقيها هو حقا من
صفوة رجال الفكر المعاصرين ..

أما في القضاء فقد أقيمت إليه أمانة الحكم
في سنة ١٩٣٢ بتعيينه قاضيا بمحكمة
الإسكندرية ، وقد عهد إليه رغما عن حداثة
عمره بالقضاء بتطبيق نظام قضائي جديد في
المحاكم الوطنية ، وهو نظام القضاء المستعجل ،
فقام بالعبء على أكمل وجه . مما أسهم في
نجاح هذا النظام فظل قائما حتى اليوم :

وقد أهله هذا النجاح للتعين عضواً في
التفتيش القضائي بوزارة العدل ليقدر جهود
رجال القضاء ويزن أعمالهم ، وذلك رغماً عن
أنه كان إذ ذاك في أول درجات القضاء ،
وكان هذا التقدير تقديراً عظيماً لم يسبق
إليه :

ولكن رغماً عما صادفه من نجاح فقد غلبه
الحنين إلى المحاماة التي وصفها بأنها « مهنة
الكرامة والكفاح والحرية » . فاستقال في
سنة ١٩٣٦ ، ومارس المحاماة في القاهرة حتى
عين في سنة ١٩٣٩ في النيابة العامة محامياً
عاماً ، وهي وظيفة تلي النائب العام مباشرة ،
ثم عين بعد ذلك مستشاراً بمحكمة الاستئناف.
وأخيراً بلغ ذروة المناصب القضائية بتعيينه
في سنة ١٩٤٦ مستشاراً بمحكمة النقض فأتاح
له ذلك أن يسهم في المهمة الحليّة التي تقوم
عليها المحكمة ، وهي تجلية غوامض القانون
وتقعيد القواعد القانونية ، وتقويم المعوج
من الأحكام — وكانت هذه هي آخر رسالة
له في القضاء توج بها مجهوده الكبير .

وفي سنة ١٩٤٧ عين رئيساً لإدارة قضايا
الحكومة فنهض بعينها الجسم ضارباً المثل
لكبار أعضائها ، بأن محامى الحكومة — مهما
علا مركزه — مكانه ساحة المحاكم لأمكاتب

الإدارة ، فكان يترافع بنفسه في القضايا المهمة
، مما جعل لإدارة شأنًا لم يكن :

وقد أضاف الزميل إلى هذا السجل الحافل
في مجال القانون أثراً جليلاً في فقه القانون المدني ،
وذلك بمؤلفه القيم في « المسؤولية المدنية » الذي
تناول موضوعاً من أدق مواضيع القانون
وأشدها تعقيداً وسد بذلك فراغاً في المراجع
القانونية ، إذ أصبح الكتاب مرجعاً لكل
المشتغلين بالقانون حتى لقد أعيد طبعه مراراً.

وبعد مجالا القانون يأتي مجال كفاحه في
سبيل الشؤون العامة الذي تصدى لأمته أن وني
الوزارة في سنة ١٩٤٨ ، ثم وليها في سنة ١٩٤٩
وكان عضواً بمجلس الشيوخ في ذلك الحين
فجعله ميدان كفاحه ، كما إتصل قلماً بالصحافة
وقد حوت مضابط مجلس الشيوخ ما كان له من
جولات ، كما حوت الصحف العديد من
مقالاته — وقد وعى التاريخ كل هذا وطوى
هذه الصفحة من بين ما طوى ، وهو صاحب
القول فيها ، وقد عودنا العدل والإصاف
ولو بعد حين .

هذه المقالة موجزة كل الإيجاز عن هذه
الشخصية الكبيرة المعدة الجوانب ، أرجو أن
أكون قد وفقت في إبراز شيء من معالمها .

●●● كلمة المرحوم الأستاذ عزيز أباطة * :

أيها الزميل الكريم

هناك في أحضان الريف اليناع الوارف ،
وعلى مقربة من ملتقى البحر المتوسط بالنيل
الرافد الخالد ، هناك ولدت ونشأت ، وحين
شارفت الخامسة خرجت صباح يوم ربما لم
تحمده ، خرجت إلى كتاب القرية الوادعة
من بيتك الكريم ذى الفناء القصود والورد
المورود . وقذف بك كما قذف بنا نحن
أهل الريف إلى ذممة سيدنا فقيه الكتاب .
وإلى أيدي رائدنا عريف الكتاب . وتسلمت
كما تسلمنا لوحك من الصفيح المصقول أو
غير المصقول : وطولعت بهوز قرشت .
ورأيت بعينك كما رأينا - الفلقة والعصا ،
وما أعظمهما من مؤديات ، زاجرات أو
معاقبات . ثم بدأت بنخير ما يبدأ به الإنسان
حياته ، ذلك هو حفظ قدر كريم قل أو كثر
من كتاب الله أنزله هدى للبشر على من أرسله
رحمة للبشر : وأغلب الظن أنك حين من
الله عليك فأتملت حفظ ثلاثة الأجزاء عم ،
وتبارك ، وقد سمع ، زابت الكتاب بين
هالة من فخر الفقيه والعريف ، إلى المدرسة
الابتدائية ثم إلى المدرسة الثانوية

وأغلب الظن أنك كنت تلميذا مرموقا
أو ولدا نجيبا كما كان يقال في ذلك العهد
ولم لا تكونه فإن النجابة قد تتلامح في السن
الباكرة إرهابا لغد سعد ، ومستقبل
مشهود :

وتلاقينا في مدرسة الحقوق . وكانت
الثورة الكبرى قد اندلعت في البلاد عامة ؛
يظاهرها ويؤازرها ويحترق في أتونها المقدس
أهل البلاد أجمع . ثم اختاف زعماء البلاد ،
رضى الله عنهم جميعا وأرضاهم . اختلفوا أى
التدابير أسرع وأكفل لتحقيق آمال البلاد
وصونها . وأياها في هذه الغاية أحكم
وأهدى سبيلا .

وكان طلبة مدرسة الحقوق في طليعة الطلبة
التأثرين المجاهدين . وكانوا جميعا إلاقلة
قليلة منهم يؤمنون بأصدق الإيمان بزعامه
الزعيم الخالد سعد زغلول : تستهويهم ،
وتسحرهم كلمته . ولم أكن منهم . وكان مقهى
مدرسة الحقوق ندوة للطلبة ، يأترون فيه
ويتشاورون : وذات صباح كنت جالسا
بهذا المقهى ، وعلى قيد خطوتين منى
جلس زعماء الطلبة يديرون بينهم الأحاديث .
ويتناقلون في الخطط والتدابير ، وإذا بواحد

* كان المرحوم الأستاذ عزيز أباطة قد أعد هذه الكلمة ليلقيها في حفل استقبال
صديقه وزميله الأستاذ مصطفى مرعى ، ولكن رحمة الله استأثرت به قبل لقاء كلمته
فألغاه الأستاذ ثروت أباطة .

منهم صحت بعد ذلك بينه وبينى الصداقة -
 رحمه الله يقول ، وهو يشير إلى بإيماءة
 طرف لم يخفها : احترسوا فإن إلى جوارنا
 خصما لنا ، ولا اجتماعا غير مأمون العواقب :
 ولعل بعض الحاضرين قد وافقوا على هذا
 الرأي ولكن واحدا منهم اعتورت طلاقة وجهه
 مسحة من العبوس ، ثم أجال نظرات في
 إخوانه جميعا ، ثم بدأ يتحدث في هدوء
 وخفوت . تحدث عاتبا ثم لاثما ، ثم أخذ
 يتناول حرية الرأي وحرية التعبير ، وحرية
 الإنسان في اختيار الطريق الذى يتلاءم مع
 نفسه واقتناعه مدافعا عن ذلك الذى وجهت
 إليه تلك الإشارة النابية . وحين عورض
 اندفع في صوت متهدج يؤيد آراءه ويقول :
 إن اختلاف الآراء دليل على حيوية الأمة ،
 وبرهان على محاولات كريمة تنشأ الوصول
 إلى الحق . ولست أذكر ما قاله ذلك الزميل
 على وجه الدقة ، ولكننى أذكر كلمة كأنما
 سمعتها منه أمس . قال : فليؤمن كل منا بما
 آمن به وهذا خير ، أما عبادة الأشخاص ،
 والتسابق على تأليه ما يقولون وتقديس
 ما يصنعون ، فإنها علامة إسفاف متهافت
 يصيب الأمم والشعوب . ثم قام والغضب
 والأسف في وجهه ملامح .

أعرف هذا الشاب أيها الزميل الكريم ،
 إن لم تكن تعرفه ، فاسمح لى أن أقدمه
 إليك ، إنه مصطفى مرعى . ومنذ هذا اليوم
 تألفنا ، فلم يدخل بيننا والحمد لله شيطان
 إلى الآن .

ثم قذفت بنا إلى الحياة العامة مدرسة
 الحقوق سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة
 وألف ، وكنت كعادتك في أوائل
 الحريجين . أولئك الأوائل الكرام الذين كان
 لهم في خدمة العدالة والقانون فضل ممدود ،
 وشأن مشهود . ولقد سمعت بأذنى المستشار
 « كالوينى » يقول لعبرى القانون والعلم
 والأدب عبد الحميد بدوى ، وكانا يمتحنان
 في فرقنا في القانون المدنى : سمعته بعد أن
 امتحن واحدا منكم يقول : هذه فرقة لم تخرج
 مدرسة الحقوق فرقة تماثلها منذ أخرجت
 فرقكم عام ثمانية وتسعمائة وألف . فقد
 كان فيها إلى جانبك « محمد أحمد الوكيل »
 و « عبد المعطى الخيال » و « محمد على رشدى »
 و « محمد أحمد غنيم . » رحمهم الله ،
 و « محمود فوزى » و « محمد نجيب أحمد »
 أطال الله في حياتها . ولقد سرنا وعزانا نحن
 الذين جاء ترتيبنا بعدكم بمدى طويل أن تكرم
 فرقنا بهذه الشهادة الكريمة من خبير كبير .

ثم اخترت المحاماة أيها الزميل الكريم ،
 فزاولتها بالإسكندرية . ثم عينت قاضيا بها
 سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة وألف . وأظنك
 لم تمكث طويلا مكتفيا بعمل القاضى من دراسة
 إلى حكم ولكنك بعد أخذ ورد مع نفسك ،
 في هدأة حين ، وفي ثورة أحيانا ، انتقضت
 قاضيا متعباً لأنك ألزمت نفسك بمهمة غير
 مألوفة لافى وقتها ولا فى نوعها : طالبت
 بإصلاح مراحل القضاء وبتحقيق الأمن مع
 الكرامة لرجال القضاء . واخترت من

رأيهم أهلاً لمعاونتك ، ولما قضت الظروف على صاحبك أن يكفوا عن معاونتك ، نهضت بالعبء وحدك فكتبت التقارير والبيانات يتنافس فيها الإقدام والإحجام ، وبعثت بها لقضاة البلاد جميعاً ممهورة باسمك وحدك . ألم أقل لك إنك كنت قاضياً متعباً . ولقد كان جزاء هذا القاضي المتعب بعد أن بلور نظريته ، وضرب ضربته ، أن نقل من الإسكندرية قاضياً لإطسا .

ثم رأس الحكومة . عارف لفضلك ، فعينت متخطياً زملاءك والسابقين على زملائك مفتشاً في لجنة المراقبة القضائية ، ثم استقلت عام ستة وثلاثين ، فسعى إليك مكتب محاماة من أكبر مكاتب البلاد وأكثرها عملاً فانضممت إليه محامياً ، ثم عينت عام تسعة وثلاثين محامياً عاماً ، ثم مستشاراً في محكمة الاستئناف ، ثم مستشاراً في محكمة النقض . ولقد كادت سنك أن تحول بينك وبين هذا المكان الكبير . وبعد أن أمضيت مستشاراً بمحكمة النقض عامين ، عينت رئيساً لإدارة قلم قضايا الحكومة لتعود بسببها ومكانتها إلى ما كانت عليه أيام عبد الحميد بدوى ، وبقيت بها إلى عام ثمانية وأربعين ، حيث عينت وزيراً في وزارة إبراهيم عبد الهادى . ثم عينت وزيراً مرة أخرى في وزارة « حسين سرى » . ثم مر على البلاد من حوادث وأحداث ما دفعك أن تكون وزيراً متعباً كما كنت قاضياً متعباً .

لم تكن وزيراً من الوزراء الذين يشدهم كرسي الوزارة أسفل ، وكثير من هم . ولم تكن من الوزراء الذين هم أشبه الناس بالسكرتيرين ، وأكثر من الكثير من هم بل كنت وزيراً عرف قدر نفسه ، وقدر مسؤوليته ، فكنت تقول : لا مجاملة حين يقتضيك ضميرك أن تقول : لا ، وكنت تقول نعم ، حين يقتضيك ضميرك أن تقول : نعم . غير آبه بملك قائم ، وقصر حاكم ، وتهديد جائم . ولم تكن وزيراً يكتفى في كبرى مصالح الدولة بما يعرض عليه . بل كنت وزيراً تقرر ما يجب أن يعرض عليه ، وكنت في مجلس الوزراء محركاً ، دافعاً عند ثبوت المنهج الصالح ، كما كنت قابضاً مانعاً عند تلامح الهدف الواضح . وكنت نورا لمن يريد أن يستنير . وكنت كفيلاً لمن يعمل منهم ، فإذا انتحاه اللوم نسب إليك التوجيه والتدبير .

وكنت وزيراً متعباً ، بل ثائراً ، حين ضاقت في وجهك السبل لإصلاح الفساد الذى استشرى بهذه البلاد ، في أواخر العهد الملكى تحدثت وناقشت ثم شكوت ثم نفذت . ثم خرجت من النقد إلى لوم عاصف ، وتجريح قاصف . وحين آنست أن الطريق أمام آرائك مسدود ، وأن الوزارة التى أنت عضو فيها تخاذلت عن هدفك المنشود . وتلددت بين أعاصير الوعيد ودفاع الوعود ؛ حين آنست ذلك ألقىت باستقالة لم يعرف تاريخ الاستقالات لها مثيلاً . قلت فيها بأسلوبك

الرائع القائم على إخلاص ذى غور عميق ،
واقتناع ذى أس وثيق ؛ قلت مخاطباً رئيس
الحكومة :

حضرة صاحب الدولة رئيس مجلس
الوزراء :

تحية ، وبعد ، فإنك تعلم كما يعلم غيرك ،
أننى إنما اشتركت فى حكومتك على أمل فيك ،
أن لك غاية هى جمع الكلمة ، وضم
الصفوف ، وأن لك هدفاً ، هو الاستعانة
بالقوى المؤتلفة على مواجهة الخطر من
مشاكلنا الخارجية والداخلية . وقد تبين لى
أنك لا تتغيا هذه الغاية ، ولا تتوسل
بوسائلها ؛ بل إنك لتبدو كما لو كنت مسلطاً
لتجعل من كل حزب حزين ، وكل فرقة
فرقتين .

وقد رأيتك بنفسى ترى رأى للحق وتنقضه
للباطل ، وتقول الكلمة وتنكرها ، ولم يقع
ذلك مرة واحدة فى تافه من الأمر ، بل
وقع مرارا وفى الخطير من شئون الدولة .

أما لفظك ، وأما عبارتك ، وأما أسلوبك
فى إدارة مناقشات مجلس الوزراء ، فقد
أصبح هذا كله ، مضرب الأمثال ،
وموضع التندر فى كل مكان .

لهذا أحيطك علماً باعتزالى العمل فى
الوزارة ؛ والله المسئول أن يدفع عن بلادنا
السوء ، وأن يقيها غوائل الفساد .

ثم اتخذت الصحف وسيلة لإعلان
رأيتك ، وتبيين خططك واشتركت فى
تأسيس اللواء الجديد ، فكتبت وكتبت

متندراً بصدقك ، ملقياً بالألائك على سوء
الصحف ، التى كان يضربها . على البلاد أكبر
رأس فى البلاد . وكانت مقالاتك تنقض
على رؤوس الحاكمين ، فى نقد نادر ،
ولكنه ساخر . وفى أسلوب يهدى لما هو أكرم
وأصلح ؛ ولكنه على قسوته يبدى دون أن
يجرح ، ومما أذكره قولك :

«إننا لا نتجر فى السياسة ، ولا نساوم
عليها ولا نبيع أقلامنا ولا نؤجرها . إننا
لا نخشى فى الحق لومة لائم ، مهما يكن
مقامه . ولا غضبة غضوب مهما تكن
سطوته . وإننا لنعرف أن الشر راصد
للأحرار فى مصر ، فاغرفاه ، يود لو
استطاع أن يبتلعهم واحداً بعد الآخر . لكننا
نعرف ، مع ذلك ، أن الكلمة الحرة الصريحة
الجريئة ، هى ألزم ما يلزم مصر اليوم .

ولقد قال « اللواء » - ولا يزال يقول -
كلمات لها هذه السمات ، وفيها هذه الخصائص
إن لم تكن قد هزت ضمائر الطغاة ، فإنها من
غير شك ، قد قرعت منهم الأسماع ولفتت
الأنظار .

ومن يدرى . . . لعل الذى نقوله غدا ،
أو بعد غد ، يكون أبعد غورا وأشد وقعاً
من كل ما قلناه حتى الآن ، فقد يلزم أن
تتضاعف جرعة الدواء ، إذا لم تنحسر
موجة الداء ، وأن تزداد قوة المقاومة ، كلما
ازدادت قوة الاعتداء . فأدواؤنا تقوى مع
الزمن ولا تضعف ، وتدمع دائرتها ولا تضيق ،
وتشتد قبضتها ولا تترأخى . وأنها - على

اختلاف أنواعها — لتساند وتتآخى : . كما
يتساند الأشرار في ظل الشيطان ، حيث
يتبادلون النفع ويتعاطون الحرام .

وها هي ذى الديكتاتورية البغيضة الطاغية ،
تمكن للحكم الفاسد وتعيينه ، وتمده بأسباب
البقاء : وها هو ذا الحكم الفاسد بدوره يهش
للدكتاتورية الباغية ويبش ، ويتصاغر أمامها
ويتقاعس ، وإنه ليدل لها ويخضع ويلين ثم
ينحنى .

ومن على ينظر الإنجليز . . بل ينظر
العالم كله إلى شعبنا المسكين محصوراً بين
هذين الأمرين نظرة استخفاف وازدراء .

هذه هي مصر اليوم ؛ ما أحوجها إلى الكلام
الحر الجريء ، عسى أن يهز ضمائر ساداتها
فيعودوا إلى الرشد ويشوبوا إلى الصواب ،
أو يهز شعور الأمة المغلوبة على أمرها ،
فتثور لتسترد حقوقها المغصوبة وسلطانها
الضائع :

وإن يوماً يتحقق فيه هذا الأمل ، أو ذاك ..
ليكونن لمصر مطلع فجر جديد .

وداولت أيها الزميل بين مقالاتك في
الصحف ومواقفك في مجلس الشيوخ ، تلك
المواقف التي توجت باستجوابك عن مأساة
الأسلحة الفاسدة ، مما أدى بأخيرة إلى طردك
من مجلس الشيوخ مع تسعة عشر من إخوانك ،
فكانت جريمة دستورية طاغية ، هبطت بالعهد
إلى الهاوية ، وسهلت على السائلين مهمة إنمائه ،
والإجهاز على أشلائه .

أما أنت محامياً ، وعلى الأخص بعد تمام
العدة ، واكتمال النضج ، فإشراقة تكاد تنقطع
دون وصفها علائق الأقلام ، وقلائد
الكلام . فأنت بالعلم الواسع ، والخطاطر الحافل ،
والذهن الحاضر ، والوميض المقدس تحت
السطوح بصائب النظرة ، والأسلوب الحلو
المستحكم المحصد والقدرة على الإبداع في غير
تعبس ولا توقف ولا تلجلج ولا طول معاناة
ومقارفة ، وبالحس السادس تتفطن به إلى
مطاوى العيب . . . أنت بكل هذا الذي
تحرّيته ، وبغير هذا مما تركته ، قد بلغت في
الحاماة أعلى مشارف قيمها . ولست أود أن
أطيل في هذا الباب ، حتى لا يقال مأفون
يدلل على انهلال النهار في وضوح النهار ؛ ولكن
الذي يقع في ذمتي أن أثبتة ، أن هذه البلاد قد
كرمت بعدد من أقطاب المحامين وعباقرتهم .
فإذا ذكر « أحمد لطفي » و « عبد العزيز
فهمي » و « أحمد عبد اللطيف » و « مرقص
فهمي » و « وهيب دوس » ، إذا ذكر هؤلاء
العمالق ، تخلل جمعهم « مصطفى مرعي »
ثابت القدم ، مرفوع الهامة . و دخل في
زمرتهم ، لا دخول الدخيل ، ولكن دخول
الزميل المثل الأصيل .

وأما كتابك . ولا أقول مذكرتك التي
قدمتها لمجلس الدولة عام اثنين وخمسين ، في
قضية من قضايا الإحالة على المعاش لهاظروفها
العجيبة ، ووطائدها المعيبة ؛ هذه المذكرة ، بل
هذا الكتاب ، يرتفع إلى أعلى مشارف إقرار
حق الإنسان .

وبيان الحق أو اللاحق في تصرف الدولة
قبلك . وذلك داء استشرى فأذل الناس وهدر
حقوقهم ، إذ كان وما يزال ينفث سمومه
بغير ما ضابط من عدل أو وازع من خلق ،
ويتراءى لى أن الفساد وأداة الحكم في بلادنا هذه
الكريمة ، هما توأمان عريقا النسب ،
يسلمهما عهد إلى عهد ، وحكم إلى حكم .
حتى ليستطاع في غير تزيد ، أن تذكر
أداة الحكم فيذكر تلقائياً معها الفساد ، فيقالا
متعاقبين ، الفساد وأداة الحكم ، كما يقال :
العُجْر والبُسْجَر ، والبر والبحر ، وزفى
وميت غمر .

ولقد جلوت هذا الموضوع الخطير فلم تر
مزلقاً إلا كشفته ، ولا طغياناً إلا فضحتته ،
فأرسلت أصوله ، وأصلت جباهه وذيله ، كل
ذلك إلى جانب الأسلوب المشرق ، والتعبير المحكم
المحصد لقانون الحق وقانون البطش بالحق .

ولقد اجتزأت من مئات مذكراتك ذات
الوعى السديد الدقيق ، والعمق البعيد السحيق ،
الى كان يتلقفها القضاة والمحامون ، بهذه
المذكورة لأنها كانت دراسة فذة لقانونيين
نعرفهما حق المعرفة : قانون الحق ، وقانون
البطش بالحق .

أما كتابك « المسؤولية المدنية في القانون
المصرى » ، الذى أصدرته في يونية من عام
ستة وثلاثين . فأول ما يبهده القارئ فيه هو
شعورك أنت بالمسؤولية ومعناها ، وأبعادها ،
وأغوارها ، فتقول في مقدمة الكتاب :

ما أحسب أن مسؤولية توازى في خطرها
وجسامتها ، مسؤولية المؤلفين على وجه عام ،
ومسؤولية مؤلف القانون على وجه خاص .
من أجل ذلك تهيبت المطبعة وترددت في طريقي
إليها .

وقد جاء كتابك أولاً من نوعه في المؤلفات
القانونية ، الدائرة حول موضوع واحد لم
يسبقه إلا أبواب متفرقة هنا وهناك :

والكتاب على قدم العهد به نوعاً ما ما زال
المرجع الرئيسى لهذا الموضوع الضخم
المتشابك ، الذى زادته المدنية انتشاراً ،
فقضت به دور المحاكم وارتكز عليه القضاة
في أحكامهم .

وسبقني هذا الكتاب الفريد ، مرجع رجال
القانون ، ما دام مقدراً أن توزن بموازينها
الحقة هذه الموضوعات . وسيظل القضاة
ينظرون إليه كلما عرضوا للخطأ بأنواعه ،
وللتقصير في شتى أشكاله ، واصلة الإرادة
والتمييز والإدراك بالخطأ والتقصير . كما سيظلون
ينظرون إليه إذا عرضوا للخطأ تحت ستار
الحقوق ، والمسؤولية عن الغير تلك التى
يحمل غبها الآباء والمعلمون وأرباب الصناعة
ومالكو الحيوان والمباني ، كما سيظل ينظر إليه
كل من تعرض عليه قضايا الحريق وحوادث
العمل وما إليها ، وسيظل هذا الكتاب عماداً من
أعمدة القانون ، ما بقيت دعاوى التعويض ،
وستبقى دعاوى التعويض ما بقي الإنسان حق
أو أثر .

أيها الزملاء الأجلاء .

إن في زميلكم « مصطفى » مزايا سامقة ،
قلما تجتمع متكاملة إلا للمرهوبين وقليل من هم .

إنه يعرف الكثير ، وإنه ليجهل الكثير :

إنه يعرف دينه كما أنزله الله ، وكما سنّه له

محمد بن عبد الله . ويتجاشى بعد ذلك عما تفهق

فيه المتفهمون ، وغرق في لحجه المتحلقون .

إنه يعرف في علمه الذي تخصص فيه وهو

القانون ، يعرف أصوله وفروعه وحواشيه

وذيوله ، وما اتفق فيه عليه المتفقون ، وما

اختلف فيه المختلفون ، وله في كل ذلك

رأيه القائم على أثبت الوطائد ، وتخرجه النابع

من أسلم الموارد؛ إنه يعرف من علوم الإنسانية

وأدبها وفنها ، أدخلها إلى العقل ، وأقربها إلى

النفع ، وأعودها على الكمال الإنساني

بالفائدة ، تسمو أقدارها ، والموعظة

تراق أخطارها .

إنه يعرف أن الكلام في موضع الصمت

فضول وهذر ، ولا يعرف أن يتصدى لما

لا يفي به ، ولا يتسع له ، ويعرف أن

السكوت في موضع الكلام لُكنة وحصر :

إنه يعرف الصداقة والصديق . وإنه يعرف

البرّ بمن ، والفضل من غير من ، كل ذلك

في رفاة حس ، ووضاعة نفس .

ويعرف أن يستمع وأن يقول ، فإذا قال

فلا تزيد ولا تحيف ، وليس إلا الكلمة تنفذ

إلى حيث يريد لها أن تنفذ ، طبّاها علما بكل

معانيها . وإذا ترفع فنفصيل أصيل ، وتبليغ

بليغ ، وترديد ما له من نديد .

إنه يعرف أو يكاد لكل معضل حاوله ،

ولكل حق دليله ؛ ولكن الذي لا يعرفه

« مصطفى » كثير وكثير .

إنه لا يعرف أن يقول لمبطل آمين ،

ولو كلفه ذلك قطع الوتين .

إنه لا يعرف أن يقول إلا إذا تلاحت في

نفسه أواصر اليقين .

إنه لا يعرف للرجل وجهين ، ولا للحق

ميراثين ، ولا للكرامة صورتين ، ولا لقيمة

الإنسان معيارين .

وإنه من القلائل الذين لا يعرفون للمال

قدراً عند الخدمة العامة ، فهي عنده قيمة

ونخلق وضمير .

إنه لا يعرف أن يقبل قضية لم يقتنع بها ،

فهو يطرد المال الساعي إليه من هذا السبيل ،

بل ليخال هذا النوع من الخزاء أفاعى تسعى

لا مالا يساق ، وهو لا يعرف أن يحتج بغير

الصدق ، جل عنده الكلام أن يكون صبغة ،

وتنزه أن يكون تكلفاً ، فهو حين يقول يجمع

بين المهابة والحلاوة ، وبين الصدق والأصالة .

ورجل القانون عنده لا بد أن يجمع بين

الأدب الرفيع والعلم العميق ، وهو من

الذين يؤمنون أن رجلاً لا يحسن أن يقول ،

لا يحسن أن يكون شيئاً في أي شيء .

إن المقاييس التي يقاس بها « مصطفى » تتعدد
تعدد جوانب النبوغ فيه ، وهيات لهذه أو تلك
وهيات أن يلم بها حديث مهما يطل هذا
الحديث .

أيها الخالدون :

لقد أضفتم عليه بالغ التقدير والتوقير ،

وآية ذلك أنكم لم تقفوه كعادتكم عند بابكم ،
وطالما وقفتموني وغيرى دورات ودورات
عند بابكم ، ولكنكم عند أول دقة دقها
عارفوا فضاه ، فتحت له مصاريع محرابكم .
وكنتم أعزكم الله عند دعوتنا الجواب . صيغ
فى بالغ التأهيل وخالص الترحاب .

الكلمة التي ارتجلها الأستاذ مصطفى مرعى :

السيد الرئيس

السادة الزملاء

سبداقى ، سادتى

المقياس الذى يقاس به حسن الكلام ، هنا قلعة
الفصحى ومنارة الضاد ، هنا أريد أن أتكلم
فلا يسعنى إلا أن أقف خاشعاً أمام أئمة اللغة
وأعلام البيان .

وقد سألت نفسى حين علمت أنكم أردتم
لى أن أكون معكم فى هذا المحراب ، سألت
نفسى هل البقية الباقية منى قادرة على أن
تحقق أمل الكرام الذين أحسنوا الظن بى ؟
هل البقية الباقية منى قادرة على أن تحملى
لألحق بركبكم المهيمون فأعانى معكم كما يعانون ،
وأضطلع بينكم ببعض ما تضطاعون ؟
وقبل أن أصل إلى جواب عن هذا السؤال ،
سمعت صوت السبعين يحذر من جهة وينذر
من جهة أخرى ، لا لأن السبعين عليها بأس
فى ذاتها ، ولكن لأن العشرين الأخيرة منها ،
كانت بالنسبة لى فترة تشدت وتمزق وضياح ،
كنت مغترباً بالحسد بين الحين والحين ،
مغترباً بالروح فى كل الأحيان ، كنت مغترباً
بالمعنى الذى أراده أبو حيان التوحيدي حين

ما تهيبت الكلمة ولا أشفقت منها ، كما تهيبتها
وأشفقت منها . هذا المكان ، وأنا لست
طارئاً ولا دخيلاً على صناعة الكلام ، فقد
خاطبت المحاكم على اختلاف درجاتها حين
كنت محامياً ، خاطبت الطلبة فى حلقات
الدرس حين كنت أ حاضر فى كلية الحقوق ،
خاطبت مجلسى الشيوخ والنواب حين كان لنا
برلمان ، وكان لى أن أمثل الحكومة فى
المجلسين ؛ هناك فى المحاكم أو فى حلقات
الدرس أو فى البرلمان ، كانت الفكرة هى النجاة
لا اللغة ولا الألفاظ ، هناك كانت المعانى
لا المباني هى قصد السامع والمتكلم على حد
سواء ، هناك كان وضوح الفكرة يغطى
أخطاء اللغة ، هناك كانت طلاقة اللسان تحجب
عثرات اللسان ؛ هنا الأمر يختلف ، هنا اللغة
لا تقل أهمية عن الفكر ، هنا سلامة اللغة هى

قال: «أغرب الغرباء من صار غريباً في وطنه ، وأبعد البعداء من كان بعيداً في محل قربه ؛ لأن غاية المطاوب أن يساو عن الموجود ، وأن يغمض عن المشهود ، وأن يقصى عن المعهود » . كلمات التوحيدى هذه قد تبدو خائفة حذرة مبهمة غامضة ، ولكن الطبع فوق التطبع ، وكان التوحيدى جريئاً بطبعه لم يلبث أن قال :

« يا هذا الغريب من إذا ذكر الحق هجر ، وإذا دعا إلى الحق زجر ، يا رحمتا للغريب ، طال سفره من غير قدوم ، وطال بلاؤه من غير ذنب ، واشتد ضرره من غير تقصير ، وعظم عناؤه من غير جدوى » ؟

والذى لا شك فيه أن التوحيدى نفسه كان مغترباً بالمعنى الذى تصوره عباراته هذه ، والذى لا شك فيه أنه إنما كان يعبر عن آلامه وآلام من كانوا على شاكلته من بنى قومه حين قال ما قال ، ذلك لأن عصره كان عصر طغيان فشا فيه ما يفسد عادة في عصور الطغيان ، من ظلم وبغى وكذب وكيد ونفاق وضلال :

وهو يقول في ذلك : « إلى متى نعبد الصنم بعد الصنم ؟ إلى متى نقول بأفواهنا ، ما ليس في قلوبنا ؟ إلى متى ندعى الصدق والكذب شعارنا . . . إلى متى نستظل بشجرة تقلص عنا ظلها ؟ إلى متى نبتلع السموم ونحن نظن أن الشقاء فيها ؟

من خلال هذه السطور نستطيع أن نرى التوحيدى وهو يلقي القفاز في وجه الطغيان ، ونستطيع أن نراه في الوقت نفسه وهو يضع أوراقه مكشوفة على مائدة المعرفة ليقرأها من شاء متى شاء .

ومن خلال هذه السطور أيضاً نستطيع أن نرى التوحيدى وهو يحول جولة رائدة رائعة في علم النفس قبل أن يعرف علم النفس ، وفي علم الاجتماع قبل أن يعرف علم الاجتماع ، وفي علم* نفس الجماعات قبل أن يعرف علم نفس الجماعات .

وقد أتاحت له هذه الجولة أن يكشف النقاب عن مرض اجتماعى خطير هو الاغتراب أو الانفصال الذى يفصل المواطن عن وطنه حين يسوء حال هذا الوطن وتضطرب أموره ويجرى الفساد في أنحائه وتضيع كلمة الحق فيه .

ومضى التوحيدى ومضت بعده قرون ، وجاءت في عصرنا الحاضر أجيال ساخطة على النظم التى تحكمها ، رافضة لها متمردة عليها . وأخذ علماء الغرب يبحثون في هذه الظاهرة ليصلوا إلى علتها . فإذا بفريق منهم لا يرى لها علة إلا العلة التى كشفها التوحيدى . ولا يجد لهذه العلة اسماً إلا الاسم الذى قال به التوحيدى وهو الاغتراب ، ترجموه إلى الإنجليزية فصار (alienation) وإلى الفرنسية فصار (alienation) . ولا أظن أن توافق الحواطر هو الذى أدى إلى هذا اللقاء

بين الشرق والغرب لأعلى نوع العلة فحسب ،
بل على نوعها واسمها معاً . وإنما هي بذرة
أو حبة مباركة التقطها علماء الغرب فيما
التقطوه من التراث العربى ولا عليهم إذا أفادوا
منها متى كانوا قد سبقوا غيرهم إلى كشفها
والإحاطة بأسرارها .

أخشى أن أكون قد استطردت ، لكن
الهدف هو أن أشعركم ببعض ما أعانيه .
ولو التزمت الترتيب العاطفى لا الترتيب
المنطقى لبدأت حديثى بفجيعتى فى أخى
وأخيكم عزيز أباطة . أقول فجيعتى وأنا أعلم
أن موت عزيز قد فجع مصر كلها ، بل
فجع العالم العربى كله ، وقد لا أبالغ إذا
قلت أن موت عزيز حرى أن يفجع كل
إنسان بما هو إنسان فى كل مكان .

أقول فجيعتى مع ذلك ، ورغم ذلك ،
لأن عزيزاً لم يكن زميلاً فحسب ،
وإنما كان صديقاً عاشت صداقته خمسين
سنة عطرة نضرة ، لم تلحق
بها شبهة ولا شائبة شائبة وإن أنس

لا أنمى نداءه لى حين كان يلقانى فيقول :
« يا صديق العمر » . إني لأنفجع على
« عزيز » ، وإني لأعلم أنكم تتفجعون معى ،
لأن خسارة مجمعنا بفقدته خسارة لا تعوض ،
فقد تعددت مزاياه ، وتنوعت مواهبه ،
كان عالماً وهو أديب ، ناثراً وهو شاعر ،
كاتباً وهو خطيب . ولقد اجتمعت له هذه
المزايا كلها لا لتختلف ولا لتنافر ، ولكن

لتألف وتتراحم ، كما لم تألف وكما لم تتراحم
لدى أى كاتب آخر .

وإذا كان قد حلق فى سماء الشعر وانتهى
فيه إلى الفحة ، فاستحق عن جدارة أن يكون
أميراً عليه بعد شوقى ، فذلك لأن الشعر
عاطفة قبل كل شئ ، وعاطفة « عزيز » هي
التي فجرت ينابيع الشعر فى قلبه ، ومن هنا
كان شعره المهموس الذى يعبر عن وجدانه
الذاتى شعراً لا يجارى . ومن هنا أيضاً كانت
الأنات آية من الآيات ؛ وبعد العاطفة يأتى
الخيال فيما يقضيه الشعر : و « عزيز » كان
له من حسن التخيل أوفى نصيب ، أما اللفظ
الرشيق ، أما التصوير الدقيق ، أما التشبيه البديع ،
أما النغم الحلو ، فقل فى ذلك كله فى جانب
« عزيز » أكثر مما قيل وأكثر مما يمكن أن يقال
فى جانب أى شاعر آخر من شعراء عصره ؛
السيد الرئيس ، إخوانى :

يقع على نزول على تقاليدكم أن أستمحضر
اللغة لتكون معنا بأن أعرض عليكم مسألة من
مسائلها . وقد اخترت لهذه الغاية مسألة اللغة
والحضارة ، ذلك لأننى رأيت بين المفكرين
من يقول إن اللغة مرآة تعكس حضارة
عصرها ، وتسير فى ركابها . تابعة لها تسمو
بسموها ، وتهبط بهبوطها ، وهذا القول قد
يفتح الباب للظن بأن دور اللغة فى بناء
الحضارة أدنى إلى السلب منه إلى الإيجاب ،
وهو قول تنقضه الحقيقة العلمية ؛ ولكى
ندرك هذه الحقيقة يكفيننا أن نعرف ما هي

الحضارة ، ثم نعرف مبلغ اعتمادها على الفكر ، وأخيراً نعرف مبلغ اعتماد الفكر على اللغة .

أما الحضارة فهي كما يقول المعجم الوسيط : «مظاهر الرقي العلمي والفني والأدبي والاجتماعي في الحضر » .

أما اعتمادها على الفكر ، فآيته أن الحضارة لم تخط خطوة واحدة في تاريخها إلا كانت وراءها فكرة تحركها وتمسك بزمامها . !

وأما اعتماد الفكر على اللغة ، فإن الفكرة تظل حائرة في ذهن صاحبها ، حتى تجد اللفظ المناسب لها فتستقر وتثبت وتتحدد عندئذ ، وعندئذ فقط يمكن الاحتفاظ بها في الذاكرة كما يمكن الانتفاع بها في الفهم والتفاهم . .

إذاً كان ذلك ، وكان لا بد للحضارة من الفكر ، وكان لا بد للفكر من اللغة ، أقول إذاً كان لا بد للحضارة من الفكر ، لأنه هو الذي يحركها ويمسك بزمامها ، ولا بد للفكر من اللغة لأنها هي التي تجسده ، كان مقتضى ذلك ولازمه أن تكون اللغة ركناً من أركان الحضارة ، لا مجرد مرآة تعكسها أو مجرد تابع يسير في ركابها .

واللغة المقصودة هنا ، هي الفصحى ، والفصحى وحدها دون سواها ، لأن غاية العامية وقصاراتها أن تعبر عن حاجات البيت

والطريق والسوق ، أما حاجات العلوم والفنون والآداب وما إلى ذلك من وجوه المعرفة ، معرفة الإنسان فليس لها إلا الفصحى ، وحيث تتصارع اللغتان ، والصراع هنا حتم يفرضه قانون تنازع البقاء وحيث يقع هذا الصراع بين اللغتين : الفصحى والعامية ، فإن ما تكسبه الفصحى يكون كسباً للحضارة ، وما تكسبه العامية يكون عبئاً على الحضارة وقيداً يقيد خطاها .

ولما كانت الأمية هي مصدر العامية ، فقد صار محو الأمية علامة من أبرز علامات الحضارة ، ومقياساً من أدق مقاييسها ، وإذا قسنا حضارتنا بهذا المقياس ، فإننا ننهي مع الأسف الشديد إلى نتيجة تفدح النفس وتقهقر القلب ، لأن الأميين عندنا يمثلون ثلاثة أرباع السكان ، كانوا كذلك منذ عشرين عاماً ، وهم كذلك الآن ، ولا تسألوا أين أجهزة التعليم ؟ لأن الجواب حاضر ، تقف عاجزة العجز التام عن أن تنال من هذه النسبة منالاً .

أما شاهدي على هذه النسبة فهو بحث قيم كتبه الكاتب الأديب « الأستاذ لويس عوض » في صحيفة « الأهرام » ، في عددها الصادر في السادس والعشرين من فبراير سنة واحد وسبعين ، وقد جاء فيه ما يأتي :

« ورثنا عن مصر الملكية نسبة من الأمية قوامها ٧٥ ٪ من مجموع السكان ، وكان يقدر بنحو ٢٠ مليوناً ، ونحن الآن بعد ٢٠ عاماً ورغم ارتفاع ميزانية التعليم إلى نحو مائة وعشرين مليوناً من الجنيهات سنوياً

لا نزال نحافظ على نسبة من الأمية قوامها نحو خمسة وسبعين في المائة من مجموع السكان » .

قد لا ترضينا هذه الأرقام لأنها لا تسير آمالنا ؛ ولأنها تخدش كرامتنا واعتزازنا بأمثنا ، لكن الأدلة أجمعت على صحتها . فقد عهدت في كتابها الأمانة والدقة والشعور بالمسؤولية ، وهو إلى ذلك كاتب ملتزم ، وقد نشرتها صحيفة الأهرام وهي ملتزمة أيضاً . والالتزام له مفهومه الذي لا يخفى عليكم . وقد لا ذت أجهزة التعليم أمامها بصمت مطلق فلا هي أنكرتها ولا هي نازعت فيها .

وإذا كان ذلك ، وكانت هذه الأرقام صحيحة ، كان لي أن أقرر بناء عليها والأسى عملاً قلبي أننا نعيش في مجتمع أمي ؛ لأن العبرة في الأحكام على المجتمعات بالكثرة لا بالقلة ؛ نعم ، نحن نعيش في مجتمع أمي ، وهذا يعني أننا نعيش في مجتمع أطبق عليه الجهل ، وهو يعني أننا نعيش في مجتمع يغشاه الظلام في أوضح ساعات النهار .

ومن هذه الحقيقة المؤلمة نستطيع أن نتبين العلة المسئولة عن سائر العلل التي نشكو منها في حياتنا كلها :

فالأمية هي المسئولة عن الانفجار السكاني الرهيب الذي يهددنا بأوخم العواقب . وقد ثبت أن متوسط إنجاب الزوجة الأمية في الريف تسعة أطفال ، بينما متوسط إنجاب الزوجة المتعلمة يتراوح بين أربعة وخمسة أطفال .

والأمية هي المسئولة عن هبوط مستوى الإنتاج ، لأن العامل المتعلم ، زارعاً كان أو صانعاً ينتج أضعاف العامل الأمي . ومن هنا تغيرت النظرة إلى العلم في العالم كله شرقه وغربه ، فقد أصبح العلم وجهاً من وجوه الاستثمار ، وكان من قبل خدمة من الخدمات :

والأمية هي المسئولة عن هبوط مستوى الثقافة العامة ، لأن مصانعة الكثرة الجاهلة ومجاملتها لا تكون إلا على حساب من أقدار القلة المتعلمة ومواهبها ، وفي هذا تفسير لهجرة العقول التي نراها بالبصر ولا نرى بالبصيرة ما وراءها من أسباب ، ولا ما ينبئ عليها من نتائج :

والأمية هي المسئولة عن شعب لا يفقه ولا يفهم حقوقه السياسية ، فلا عجب إذا لم يشارك حكامه في تقرير مصيره ؛ ومن باب أولى لا عجب إذا عجز عن أن يحاسب حكامه أو أن يحسن الحكم عليهم .

والأمية هي المسئولة عن أمة تتحول إلى شعب ، وشعب يتحول إلى جماهير ، وجماهير تتحول إلى غوغاء :

إننا نخوض حرباً ضارية ضد عدو شرس عنيد بغيض ، وإن لهذه الحرب علينا أن نقدم لها كل ما في القلوب من إيمان ، وكل ما في الصدور من شجاعة ، وكل ما في اليد من مال ؛ ولكن ذلك كله لا يجوز أن يصرفنا لحظة عن حرب نشنها ضد الجهل والظلام :

سيدى الرئيس ، إخوانى :

يبقى أن أحدثكم عن سلفى ، وأخشى أن أكون قد تحاملت على أوقاتكم ؛ أحدثكم عن سلفى المرحوم الدكتور محمد عوض محمد ، والحق أننى لم أكن قريباً منه حال حياته ، لكننى كنت أسمع عنه وأقرأ له ، وبعد أن استأثرت به رحمة الله ، نظرت فى آثاره ، فإذا أنا أمام سيرة تنبعث منها الأضواء من عدة جهات ، فقد كان ، عليه رحمة الله ، رائداً من رواد المدرسة الوطنية التى سبقت نهضة سعد زغلول ، وكان أسلوب هذه المدرسة فى إيقاظ الوعى الوطنى أن تثير المشاعر ضد الغاصب المحتل ؛ ويبدو أن صاحبنا ، على صغر سنه ، كان نشاطه ملحوظاً فى هذا المضمار ، وبدأ خطر هذا النشاط لسلطة الاحتلال بعد أن اندلعت الحرب العالمية الأولى ، فاعتقلته وقذفت به إلى « مألطة » ، حيث قضى أربعة أعوام ، وكانت « مألطة » حينذاك ، محبس كبار الأحرار .

هذا وجه من وجوه الإشعاع فى هذه السيرة العطرة لسلفى « عوض » .

الوجه الثانى : هو العلم ، فقد كان جغرافياً نابه الذكر ، حاضراً فى الجغرافيا ، ووضع فيها كتباً قيمة لفظاً ومعنى ، ولم يقع فيما يقع فيه بعض المتخصصين الذين سمحوا لمادة التخصص أن تستأثر بهم وأن تستنفذهم وأن تصرفهم عن غيرها من مواد المعرفة ، فضاقت آفاقهم ، وصغرت أحجامهم ؛

على النقيض من ذلك كان « عوض » صاحب ثقافة عامة ، غنية ، غزيرة ، متنوعة ؛ فهو مثلاً يكتب عن الرق ، والمسافة بعيدة جداً بين الجغرافيا والرق ، وهذه الثقافة الغنية المتنوعة هى التى أتاحت له ، عليه رحمة الله ، أن يكون واحداً ممن وضعوا ميثاق الأمم المتحدة ، وأن يكون واحداً ممن صاغوا بعد أن ناقشوا شرعة حقوق الإنسان . هذه الثقافة الغنية الغزيرة هى التى أتاحت «لعوض» فى خطوة أولى أن يكون عضواً فى المجلس التنفيذى لليونسكو ، وأن يكون بعد ذلك فى خطوة ثانية نائباً لرئيس هذا المجلس ، وأن يكون بعد ذلك فى خطوة ثالثة رئيساً لهذا المجلس نفسه .

الوجه الثالث من وجوه الإشعاع فى هذه السيرة ، هو الأدب بنوعيه ، الخاص والعام ، لأنه كان تارة يقدم الفكرة ، تؤيدها العاطفة ، فيكون أدبه عاماً كأدب المؤرخ وأدب الناقد ، وكان تارة يقدم العاطفة تؤيدها الفكرة فيكون أدبه خاصاً كأدب الشاعر وأدب القصة . وكان إنتاجه من النوع الأول أكثر كثيراً من إنتاجه فى النوع الثانى ، لأنه كان يميل إلى النقد قصد الإصلاح ، وكان نقده فى الغالب يدور فى مدارين : الاجتماع والسياسة ، وكان يحلوه بين الحين والحين أن يسخر ، ولكن سخريته كانت دائماً تتسم بالحياء ، وتتحدث من وراء حجاب وكان لها من الأسطورة والرمز والحوار ، فضلاً عن الكناية والاستعارة والمجاز ما أغناها فى هذا الباب .

هذه سيرة عوض كما تمثلها في آثاره ،
أما سيرته في المجمع فأنتم أعلم بها مني ،
رضي الله عنه وأرضاه :

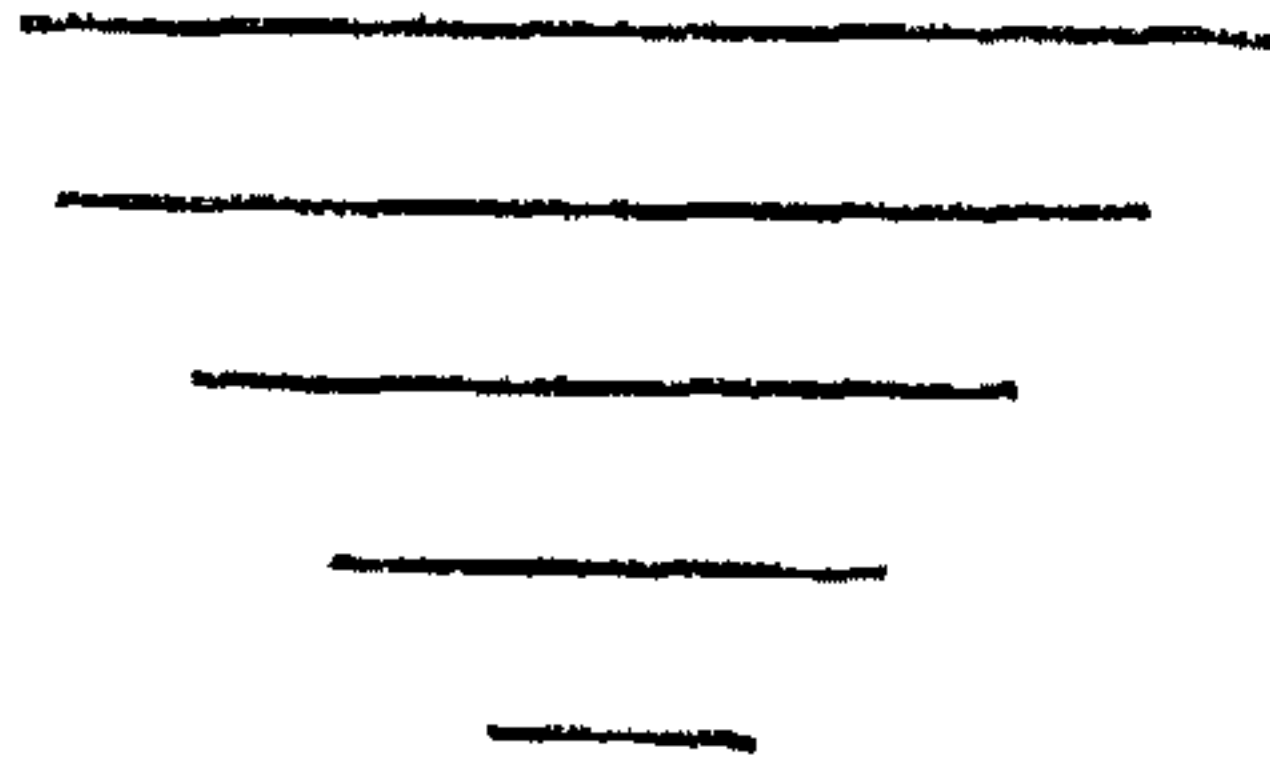
السيد الرئيس :

كان لك تقديري وإعجابي قبل أن أراك ،
وقد رأيتك فرأيت الحكمة مجتمعة مع القدرة ،
والخلق ، وهذه ألوان نادرة قل أن
تجتمع في علم واحد ، وإن الذي بيني
وبينك يأسى أكثر كثيرا وأعماق جدا من
الطربوش ؛ لأن الطربوش رمز فقط ،
وهو اليوم يرمز إلى كثير تفهمه أنت وأفهمه
أنا ، وأرجو أن يفهمه معنا كثيرون .

أما أنت «يا عبد العزيز» ، يا شيخ القضاة ،
فما عهدتك مجاملا قط في دار القضاء ،
ولكنك جاملتني اليوم من غير شك في هذه
القاعة ، ولا عليك ، فالمجاملة هنا محمولة
على معنى الوفاء ، والوفاء وجه من وجوه
البر أو وجه من وجوه العدل .

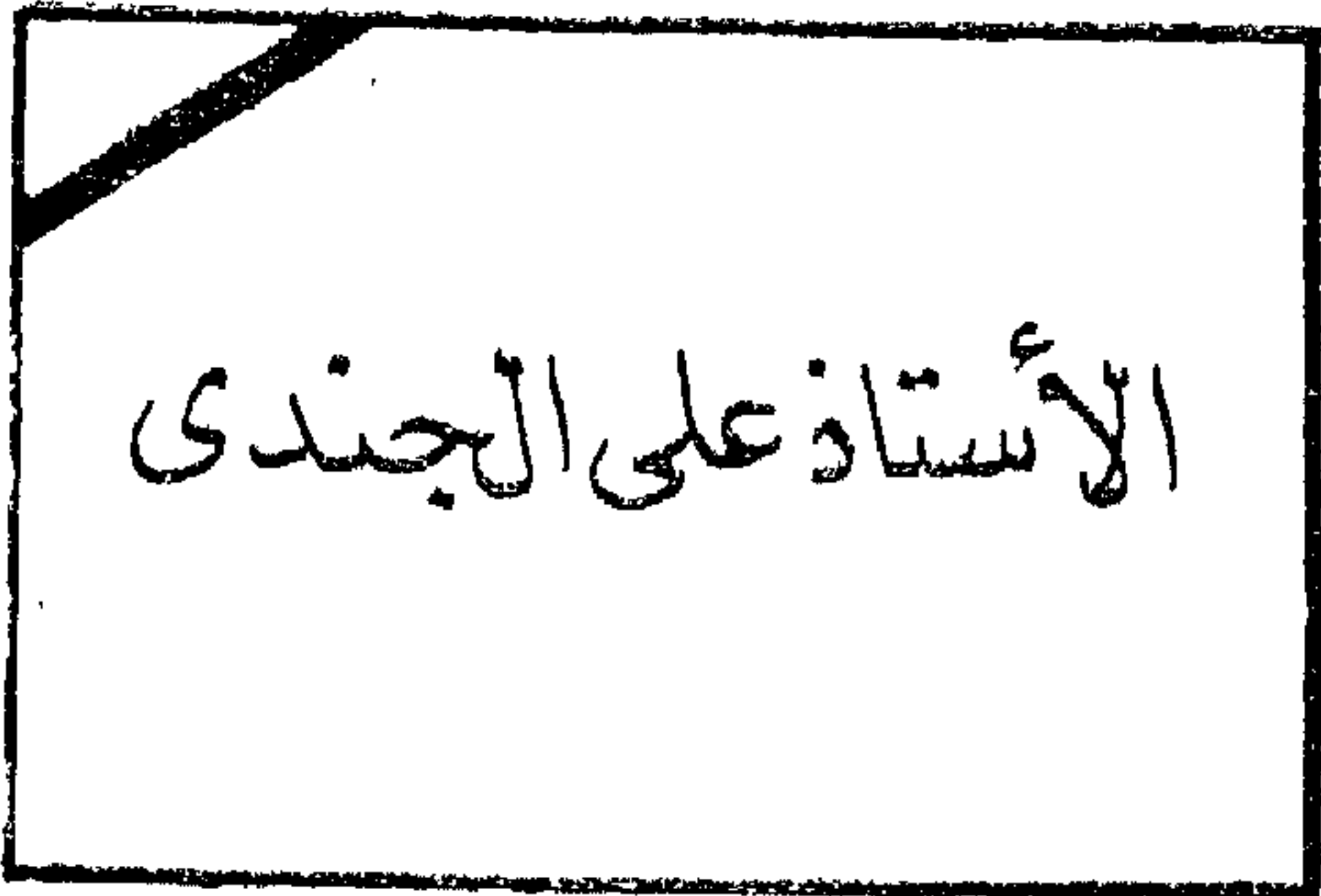
أما أنت «يا ثروت» ، فإني قسيمك في
بلواك ، شريكك في مصابك ، وإني أسأل الله
أن يهيئ لك ولدويك أسباب العزاء .

وأما أنتم أيها السادة ، فالشكر لكم ،
والسلام عليكم ورحمة الله .



في الساعة الحادية عشرة من صباح الأربعاء ٢٠ من شوال سنة ١٣٩٣ هـ (الموافق ١٤ من نوفمبر سنة ١٩٧٣ م) أقام المجمع بداره بالجيزة حفل تأبين للمرحوم على الجندى عضو المجمع ، وفيما يلي ما ألقى في الحفل :

كلمة الافتتاح للأستاذ زكى المهندس في تأبين المرحوم :



ويبدو أننا في غمرة الحزن والأسى ننسى أنه ليس للموت مواعيد ، وليس للأجل مواعيد ، فكم من رجل يخرج من بيته سليماً معافى ثم يدركه الموت فلا يعود إلى داره إلا محمولاً ، وكم من رجل يمسي وفي صدره آمال كبار ، ثم يصبح فإذا هو خبر من الأخبار . هذه إرادة الله الذي لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه :

ويبدو أن هذه الوفيات المفاجئة قد أصبحت من سمات هذا العصر الحضارى الذى نعيش فيه ، فقد اشتد ضغط الحياة ، وتنوعت تكاليفها ، وازدادت سرعتها ، وأصبح الإنسان يطمح إلى تحقيق أهداف بعيدة لا تقوى صحته على احتمالها ، ومن أجل هذا كثرت الذبحات الصدرية ، والنوبات القلبية ،

زملائي .

سيداتي وسادتي :

إنه ليعز على المجمع أن يجتمع اليوم لتأبين زميل كريم ، وأستاذ فاضل ، وشاعر لامع هو المغفور له ، على الجندى :

لقد كانت وفاته المفاجئة صدمة هزت أعصابنا وتركت في نفوسنا أشد الحزن وأعظم الأسى : لقد كان الفقيد قبل وفاته بيومين اثنين بيننا سليماً موفوراً الصحة لم يبد عليه أقل أثر للضعف ، بل لقد كان ليلته وفاته يتحدث إلى الزميل الأستاذ عباس حسن حديثاً فيه دعاية وفيه روح ، وقد اعتزما أن يلتقيا في صبيحة تلك الليلة لقضاء بعض الشئون ، ولكن ما لبث زميلنا الأستاذ عباس أن روع - كما روعنا - بوفاته في الصباح الباكر .

والأهيارات العصبية ، والضغط العالى والواطى
وما إليها من الحالات التى لم يكن لأجدادنا
عهد بها .

هذه أيها السادة هى ضريبة الحضارة ،
ويجب أن نتقبلها راضين أو كارهين .

لـ ومع هذا فإننا نؤمن بإيماننا راسخا عميقا بأن

كل حى إلى فناء ، وأن كل نفس ذائقة الموت
وأن لكل إنسان أجلا محتوما وقدرًا مقدورا
« فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة
ولا يستقدمون » صادق الله العظيم .

رحم الله الفقيد رحمة واسعة ، وأسكنه
فسيح جناته ، وجزاه عما قدم للأدب واللغة
بخير ما يجزى به عباده الخالصين العاملين .

●●● كلمة الأستاذ عباس حسن :

بسم الله نبتدى ، وبحوله نستعين ، وبحمده
للهج فى السراء والضراء ، وبحكمته البالغة
نؤمن فى كل ما تجرى به المقادير ، ولأنبيائه
ورسله أكمل الصلاة وأزكى الدعاء وأصدق
الإكبار والتقديس ، ولمن اهتدى بهديهم
وترسم خطاهم أصدق مراسم الود وأخلد
آيات التقدير . تردها الألسنة فى حياتهم ،
وتجدها الذكريات البارة الخالدة بعد مماتهم
ويظل تاريخهم منارا يستضيء به السائرون
فى ظلمات الحياة ، وهدى يسترشد به الضالون
فى متاهاتها . وما نحن أولاء نتلاقى اليوم
لنتذكر ونردد مآثر علم من أعلام الهداية
ودعامة من دعائم النفع الأسمى والخير الأعم
هو الأستاذ : « على الجندى » أثابه الله على
ما قدم ، وأفاض عليه من رحمته ورضوانه
ما يفيضه على المصطفين الأخيار من أهل جنته
ودار معلوده . فما أجدر فقيدنا أن يكون فى

زمرة من أنعم الله عليهم بالرضا وسلكهم
فى مسالك الصديقين والشهداء والصالحين .
وما عسى أن أقول فى وصف فقيدنا من
صادق القول وخالص الحق بعد أن فقدت
الألفاظ فى عصرنا — بل قبل حاضرننا — صحيح
الدلالة ، ودقيق المعنى ، وخصيصة التحديد ،
وانطلقت الألسنة تردد فى الثناء على من يستحق
ومن لا يستحق عبارات أيسرها : أنه علامة
زمانه ، وفريد عصره وأوانه ، وأنه أشجع
الأبطال ، وأذكى الرجال وأعلم العلماء وأبرع
الكتاب وأشعر الشعراء وما شئت من صيغ
التفصيل وأفاعله فى غير حذر ، ولا تحفظ
ولا تحرز ، حتى أخذ عليهم هذا بعض القدامى
فسجل أن المديح المردد قد استفاض حتى
انتهى إلى ابتذال اللفظ وموت المعنى ونفور
النفس كما سجله شاعرهم الذى يقول :
هل غادر الشعراء من متردم ؟

فما عسى أن أقول اليوم في موقف التأبين ؟
وما عسى أن أصنع ؟

لامناص من التردد ، ولى فيه شافع بل
دافع ؛ ذلك أنى أعرض مآثر فقيدنا على من
يعلم حقيقتها ويقطع بصديق القول فيها لا تشوبها
شائبة ادعاء ، ولا يدانيها من قرب أو بعد
زيف أو تضليل ، فماذا عن فقيدنا الراحل أسبغ
الله عليه رحمته ورضاه ؟

لقد زاملته في عهد الطلب ، وصاحبته بعد
التخرج سنوات التدريس في التعليم ، ثم في
كلية دار العلوم . وتلاقينا بعد ذلك عضوين
في مجمعكم الموقر وقضيت في هذه الملازمة
والمصاحبة نصف قرن أو يزيد . وقل أن
تمهياً هذه المرافقة لكثير من الناس . وأشهد أنى
بعد طول المصاحبة في ميادينها المختلفة ومسالكتها
أو مزالقتها الوعرة الخطيرة لم أر منه إلا ما يسر
الصديق ، ويرضى الخالق الأسمى ، ويكبت
الماجن ، ويحمل الخاقد قهراً على محبته
ولا كباره . عرفته سمح الطبع مأمون البادرة بل
يُظلم أحياناً فيغتفر ، حلو الفكاهة ، حاضر
البدية وقاد القريحة يزينه في شبابه شيب
جميل على وجه أجمل ، وعقل أكمل : ورأيت
في عهد الطلب مجلداً سباقاً قلماً تخلى عن مكان
الصدارة ، يزينه أدب جم ، وحياء محبب ومنافسة
في كرائم الأمور ، وترفع عن صغائرها . يتوج
هنا كله حرص على الدين ،
واستمسك بأحكامه ، وانقياد كامل لكل
ما يقضى به في غير تزميت مقيت ولا تحلل
بغيره .

وزاملته مدرسا في معاهد التعليم العام فإذا
اسمه يتردد في مقدمة الأفذاذ مادة وصناعة
وتأليفا وأمانة رواية . لم تتخل عنه مزاياه
الخلقية ، ولم يتخل عن الحرص عليها ،
والاستمسك بها . وهو إلى ذلك كله جم
التواضع سمح الطبع لم يتحدث يوما عن نفسه
ولم يردد على لسانه لفظة « أنا » ولم يجبه
متحدثا بما يسوء ولم يرد عليه بعض ما قال .

وتراه يصغى للحديث بسمعه وبقلبه ،
ولعله أدرى به ، ولا تراه إلا باسم الثغر ،
متهلل الوجه ، إن فأنرك لم يغضبك ، وإن
مازحك لم يجرحك .

وإذا رأيت شقيقه وصديقه

لم تدر أيهما من الأرحام
ينطبق عليه ما قاله بعض السابقين في
صديق له وقد سئل لم تحبه ؟ فقال : إنه
الصديق الذى لا يضجرك محضره ، ولا يسوءك
كلامه ولا يستخرج ما عندك بالملق والمداهنة ،
ولا يندس لسانه بغيبة ، ولا يمشى بين
الأخلاء بالسعاية ولا يتوانى في المجاهرة بالحق
ولو صدم به الجبابرة العتاة ، ديدنه : قول
القائل :

ولست أبالي حين أقتل مسلماً
على أى جنب كان فى الله مصرعى

وفى تلك الحقبة التى قضاه فى مدارس
التعليم العام أمد المعلمين والمتعلمين بمؤلفات
مدرسية متعددة نهضت بالتعليم والدراسة ،
وأعانت المعلمين والمتعلمين ورددت ألسنتهم
بعضهم مزاياها وجليل آثارها .

حتى إذا انتهى به المطاف إلى كلية دار
العلوم ووكّل إليه تدريس البلاغة والنصوص
تهلل وابتهج ، إذ وجد الميدان الأرحب
الذى يناسب مواهبه وذخائره ويتسع لطرائقه
وتجاربه في التدريس وفي التأليف . وفي
سنواته القليلة خرج علينا بعدة كتب في
البلاغة كانت طرازاً جديداً في مجالها ،
وذخائر نفيسة في نواح بلاغية وأدبية ؛ ذلك أنه
اخط في تأليفها طريقاً جديداً ، وأحكم
الخط فيهما أما إحكام ، فكانت صورا ممتازة
من الضوابط البلاغية القاعدية ، تساوقها
الأمثلة من الأدب الرفيع ، فقارئها ودارسها
ينتهي بها أو تنتهى به إلى تحقيق غرضين
جليلين : هما الضوابط القاعدية ، والروائع
الأدبية . ولعل الموقف يقتضيني أن أذكر
بعض الأمثلة من ذلك الفيض الهتون
الذى تموج به كتبه ، ومنها كتاب في جزأين
نخصهما بفن الأسجاع وحده ، فن أمثلة الحناس
قول الفرزدق في زين العابدين :

هذا ابن خير عباد الله كلهم

هذا التقى النقى الطاهر العلم

ومن أمثله للجناس المسجوع ، وما أثقل هذا
النوع ، قول بعض الوزراء لأحد عماله : كثر
شاكوك ، وقل شاكروك ، فإما اعتدلت وإما
اعتزلت . وما كتبه آخر : ترفق توفق .
وما كتبه ثالث : « للمحسن ما يثمنه وللمسيء
من النكال ما يقمعه » . ومن أمثله للتشبيه وقد كان
من أمثله في عصرنا « زيد كالأسد » و « كأنما
الوجه قمر » ، فجاء فقيدنا فعرض عشرات
جديدة محبة منها في التشبيه المركب :

يهيجني الحمام إذا تغنى
كما سجع النوائح بالمرأى
ومن الأمثلة القديمة للكناية في عهدنا
السالف « زيد كثير الرماد ، طويل النجاد »
فاستبدل بها عشرات طريفة منها ومن التورية
كقوله :

وتنبهت ذات الجناح بسحر
بالوادين فنبهت أشواق

ورقاء قد أخذت فنون الحزن عن
يعقوب والألحان عن إسحاق

وعلى هذا النمط سرى في اختيار أمثله
المختلفة في أبوابها المتعددة وقواعدها المتنوعة .
وبودى لو يتسع المجال ولكنه والأسفاه لا يتسع
هنا لاستعراض كثير من طرائف الأمثلة
ونواحي التجديد لتبين أن كتبه بحق زاد
رفي القواعد البلاغية فريداً ، وزاد لغوى ميسر
وذخيرة أدبية غالية .

وما وحسبي أن أكتفي من هذه الكتب البلاغية
بذكر ما رأيته منها وهو : (١) البلاغة
الغنية (٢) فن الأسجاع في جزأين (٣) فن
التشبيه في ثلاثة أجزاء (٤) فن الحناس .

تلك كلمة عن فقيدنا العالم ، أمان فقيدنا
الأديب فأوجز ما يقال فيه أنه إحدى الأعاجيب
حفظاً واستظهاراً وشاعرية ، فمحفوظه
لا يكاد يحمد أو يعد إلا بآلاف الأسطر
والأبيات ، وهل أدل على ذلك من أن تذكر
أمامه أمراً فما تكاد تنتهى منه حتى ينقل إلى
سمعه ما قاله الأدباء قديمهم وحديثهم

ومطبوعها، وهى فى كل ضروبها ضروب من
الفن الأمثل والنسق الأعلى ، وحسبك من
عيون قصائده - وكلها عيون - قصيدته فى
وصف الإسكندرية وقصيدته فى العزة ،
وقصيدته فى اليتيم ، وكان بودى أن أعرض
الساعة لخصائصه الفنية، وأتناول أدبه بالدرس
والنقد والتحليل، ولكن المجال لا يتسع لهذا
هنا ، وأكتفى بعرض نماذج قليلة. قد تكون
رمزا لغيرها :

- فيه شعراً أو نثراً ، حتى لتكاد تتوهم أن
الذخائر التى يحفظها رهن يمينه ووديعه راحتته
أو على أطراف أنامله ، يعرضها حين يشاء
ويدعوها حين يريد فهمي أسرع ما تلبي النداء
فى غير توان ولا إهمال ، وتلك خصيصة
بارزة من خصائصه يعرفها أصحابه ورفاقه :
وأما شعره فسل عنه دواوينه الأربعة بقصائدها
التي تفيض بالروائع والبدائع وتضرب فى مناحى
الحياة المختلفة حضرها وريفها ، مصنوعها

من قصيدة : بين أعمى البصر وأعمى البصيرة * ! !

صدقت أنا الأعمى ! وإن كان لى نظراً
يكاد يرى الخبوء فى باطن الحجر
وأنت بصير تلاحظ الشيء واضحاً
بعين قطائى وإن خانك البصر
وليس العمى أن تفقد العين نورها
ولكنه نور العقول إذا استقر
وكائن نرى أعمى من الناس بيننا
ومقلته لا تشكى الطول والقصر

من قصيدة : صورة تذكر بخالقها ! ! (الجمال الصريح ما استنطق الأفواه بالتسبيح)

ليت شعري ! ما رابنى من جمال
هو لله حجة بيضاء ؟
ربّ حسن هدى إلى خالق الحسن
حيارى لم يهدم أنبياء
ودعاء باسم الملائكة يزجى
[تتلقاه بالقبر - قول السماء
ذكرينا « يا جميل » بالله ، فالله
جمال هامت به الأصفياء
وارجعينا إلى الحياة ! فقد متنا
وإن ظن أننا أحياء

* * *

(*) كان يسير فى النهار المبصر شارد الفكر ، فصادم إنساناً كفيف البصر : فقال له الرجل - وهو
يفضحك : هل أنت أعمى ؟ !
فأطربته هذه اللفتة ! فأقبل عليه مصانحاً معتذراً ! ورأى زيادة فى هاملته أن يهدى إليه هذه الكلمة .

أى على... :
هليك . تحيية الرحمن ترى
برحمات غواد رائحة
فعزاء للمجمع فى نابغ من أعز رجالاته ،
وأظهر أعضائه ، وعزاء للأسرة فى زعيمها
الأوفى وكبيرها المرجى ، وعزاء للغة والأدب
والأدباء فى أوضح أعلامها .
أى على... سندكرك ماحيينا :

فقد ثبتت فى القلب منك محبة
كما ثبتت فى الراحتين الأصابع
نم فى جنة الخلد راضيا مرضيا ، وانعم
بجزاء ما قدمت يداك ، واسعد بما وعد الله به
عباده الصادقين المخلصين ، يبشرهم ربهم
برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم
مقيم ، خالدين فيها أبدا ، إن الله عنده
أجر عظيم :

●●● قصيدة للأستاذ محمد عبد الغنى حسن :

مات الأديب الشاعر الراوية (*)

فى كل عين دمعة جارية
وكل نفس حسرة باقية
حين تنادى الجمع مابينهم
مات الأديب ، الشاعر ، الراوية
مات ! فى حزن على واحد
فقدت فيه كل أحبابيه
فقدت فيه ماضيا مدبرا
« والدار » ، و المجلس والعافية
فى كل عين نبأ مفزع
عن أنفُس ذاهبة ماضيه

نكاد لا ننفض عن راحل
غبارهُ حتى نرى تاليه
نشيعُ المسوقى ، ولا نرعوى
كأننا فى سكرة لاهيه
تدفعنا الأرحام فى لحظة
ويحتويننا القبر فى ثانيه
ونحن مابين بداياتنا
ومنتهانا صور فانيه

* * *

(*) تفضل الأستاذ محمد شوق أمين بإلقائها فى حفل التأبين الذى أقيم بدار المجمع فى صباح الأربعاء ١٤ من نوفمبر

مات الذى كانت رواياته
ذات أسانيد لها عاليه
تراه من كثرة محفوظه
يدهش بالحافظه السواعيه
تعيد ما قد قرأت سابقا
لاضحة الغور ، ولا ناسيه
والنائيات الذكر إن يدعها
تصبح لديه سهلة دانيه
يظل يروى . . . لا الوفاض انتهى
منه . ولا جعبته خاليه

أما الدراسات فكانت له
فيها البحوث الحرة الضافيه
في « السجع » ، في « التشبيه » آثاره
ليست على طلابها خافيه
كم وردوا من نبعها صافيا
من البيان العذب أو صافيه
أضفتى على المتن بها رقة
وأسيغ الحسن على الحاشيه . .
فلا ترى فيهن من منطق
جاف ، ولا من لفظة جاسيه
حتى « الشذا الموثس » من ورده
مزال كالنرجس في الآنيه . . .
في « المجلس الأعلى » خطانا به
رائحة للشعر ، أو غاديه
وفي لسان الشعر كم جاجلت
منه ومنا ثورة حاميه

يفترق السرى : : : ولكننا
لم نفرق في الحب من ناحيه
يهدر باللفظ : : : ولكنيه
لم يترم يوما لفظه نابيه
في منطق عف وفي غضبيه
تعود من لحظتها راضيه : :
إذا غضبنا فلا مجادنا
وديننا ، واللغة الراقية
وفي سبيل الله ثوراتنا
والحضر المحبوب ، والباديه

* * *

و « مهرجان الشعر » كم ذوبت
أنفاسه فيه ، وأنفاسيه !
يبثني - مستعبرا - ما به
أبشيه - مسترحما - ما به
نأسى على الشعر الذى لم يعد
فيه رواء الأعصر الخاليه
فلم يعد كأس ولا شارب
ولم يعد ساق ، ولا ساقه !
ولم يعد هذا المذاق الذى
يلتذ طعم اللفظة الحاليه
ولم يعد تغرى شفاء به
. ولم تعد أفئدة صاغيه !
ولم تعد حتى الخيال التى
قد سنّها الشعر لنا هاديه ..
كننا البقايا فيه من حفنة
لكل أمجاد لنا راعيه

لم نَقبل التجديـد إلا على
آثار أعراقٍ لنا صافيةـه
ولم نزل في ظـلِّ أجدادنا
نعيشُ في نـعمى ، وفي فيه
* * *

يا مـجـمـعـا للـخـلد ! ما بالـه
قـد دَهِمَّتْهُ زَعزَعُ عاتية ؟
في كلِّ يومٍ عَمَلٌ ينطوى
في كلِّ حينٍ قـمـة هـاريـه
ولـسـرـدى عـينٌ : . . ولكنها
على السـدِّ رَأً مـفـتـوحـة صـاحـية
من ذا أَعُدُّ اليـوم من عـقـدٍ كـم
وكـلـه حـبـائـتـه غـالـيه ؟
ألمـيـة أن الردى غـالـيه
وبعـثـرتـه رـيـحـه الذاريـه

إن كان هـذا الموتُ قد راعكم
بضربـة من كفه راميـه
ففيكم اليـوم عزاءٌ لنا
يا حَجَّـرَ الإخلاص في الزاويه
ويا أَعـنَّ الناس في المتـدى
ويا جمالَ الحـرف في القافيه !
* * *

يا عَمـد الفُصحى وأساسـها
ويا ضياءَ اللـيـلـة الداجيـه
ويا تجـاربَ زمانٍ مـضـى !
ويا تجـلـى سـاعـة آتـيـه !
لا خـير إن فلَّ الردى جمـعـكم
وأدر كـتـكم سـنـة جـاريـه
كفـاكم خـلـداً هـنا أنكم
تـمـضـون . . والفصحى بكم باقية : .

●●● كلمة الأسرة للأستاذ محمد الفاتح الجندى « نجل الفقيد »

الأستاذ الجليل رئيس مجمع اللغة العربية
بالنيابة

السادة الأجلاء أعضاء المجمع

سيداتي وسادتي :

لقد كان تكريمكم لا تأبينكم اليوم لعميد
أسرتنا زميلكم المرحوم الأستاذ على الجندى
خير شاهد على جليل وفائكم ، وأقوى دليل
على نبيل مشاعركم وفيض أحاسيسكم التي
عبر عنها زميلا الفقيد : العالم اللغوى الأستاذ
الكبير عباس حسن ، والأستاذ الشاعر

المطبوع محمد عبد الغنى حسن ؛ وذلك
التكريم العلمى من قادة اللغة وسدنة الفكر
في البلاد العربية هو خير ما يواسى الأسرة
ويخفف عنها مصابها الفادح ، وسيظل فقيدنا
خالداً بسجاياه وسيرته وبآثاره الأدبية
والعلمية التي تحدث عنها الأستاذان الفاضلان .

مامات من حاز الثرى آثاره
واستولت الدنيا على آدابه
وسيبقى فقيدنا حياً بهذا التكريم من رجال
يعرفون الفضل لذويه ، ولا غرو في ذلك ،

فأنتم صفوفه رجال الفكر وقادة الرأي وأساتذة
الجيل وحماة تراثنا العربي ، والمدافعون عن
حياض اللغة العربية وآدابها وعالمها . . .
واسمحوا لي أيها السادة أن أبيع لنفسي
في هذه المناسبة أن أنقل إليكم أن أعز أمنية
للفقيد الراحل وهي أمنية سجلها التلفزيون
العربي قبل رحيله بأيام معدودات ، كانت
هي الابتهاال إلى الله سبحانه وتعالى بأن يوحد
الله سياسة العرب وزعمائهم وأن يكتب النصر
للأمة العربية على عدوها الصهيوني الشرس
في معركة الشرف والمصير وأن يمد في حياته
حتى يشهد يوم النصر .

ولعل في بشائر النصر التي بدت في العالم
العربي في هذه الأيام ما تفرّج به روحه وتسعد
بها في عالمها العلوي مع الصديقين والشهداء ،
وهو ما تنبأ به الفقيد منذ عدة سنوات
وعبر عنه في هذه الأبيات :

أقسمت بالله الذي

فوق البرايا قد قهر

بالشمس بالقمر المنيـر

وبالصباح إذا سقـر

بالذكر بالإنجيل بالـ

كتب المقدسة الأخر

بالبيت بيت الله حج

له الموحـد واعتـر

أنا سنقذف باليهـو

د إلى غيابات الحفر

بالجيش كالسيل الدفـا

ق وكالحظم إذا اعنـر

ونعود للفردوس يحدونـا

ويقدمنا الظفر

ويقال : حزب الله من

حزب الضلالة قد ثـار

ويقال : صهيون تسلـا

وابن ديان اندحـر

ويقال : جيش العـرب

في حرب المصير قد انتصر

كما كان والدي ، رحمة الله عليه ، يأمل

أن يرى بحوثه وآثاره المخطوطة التي انتهى

من إعدادها في أيامه الأخيرة متداولة بين

الناس ، ولإني أسأل الله سبحانه وتعالى أن

يوفقنا ويعيننا على نشر تراثه الفكري

ولنتاجه الأدبي حتى ينتفع به الناطقون

بالضاد في العالم العربي والإسلامي .

وبعد :

فإنني باسم جميع أفراد أسرة الفقيد أتقدم

إلى السادة الأساتذة ، رئيس الجمع بالنيابة

وأعضائه وجميع السادة الحاضرين بأسمى

آيات الشكر والتقدير على ما حبوا به عميد

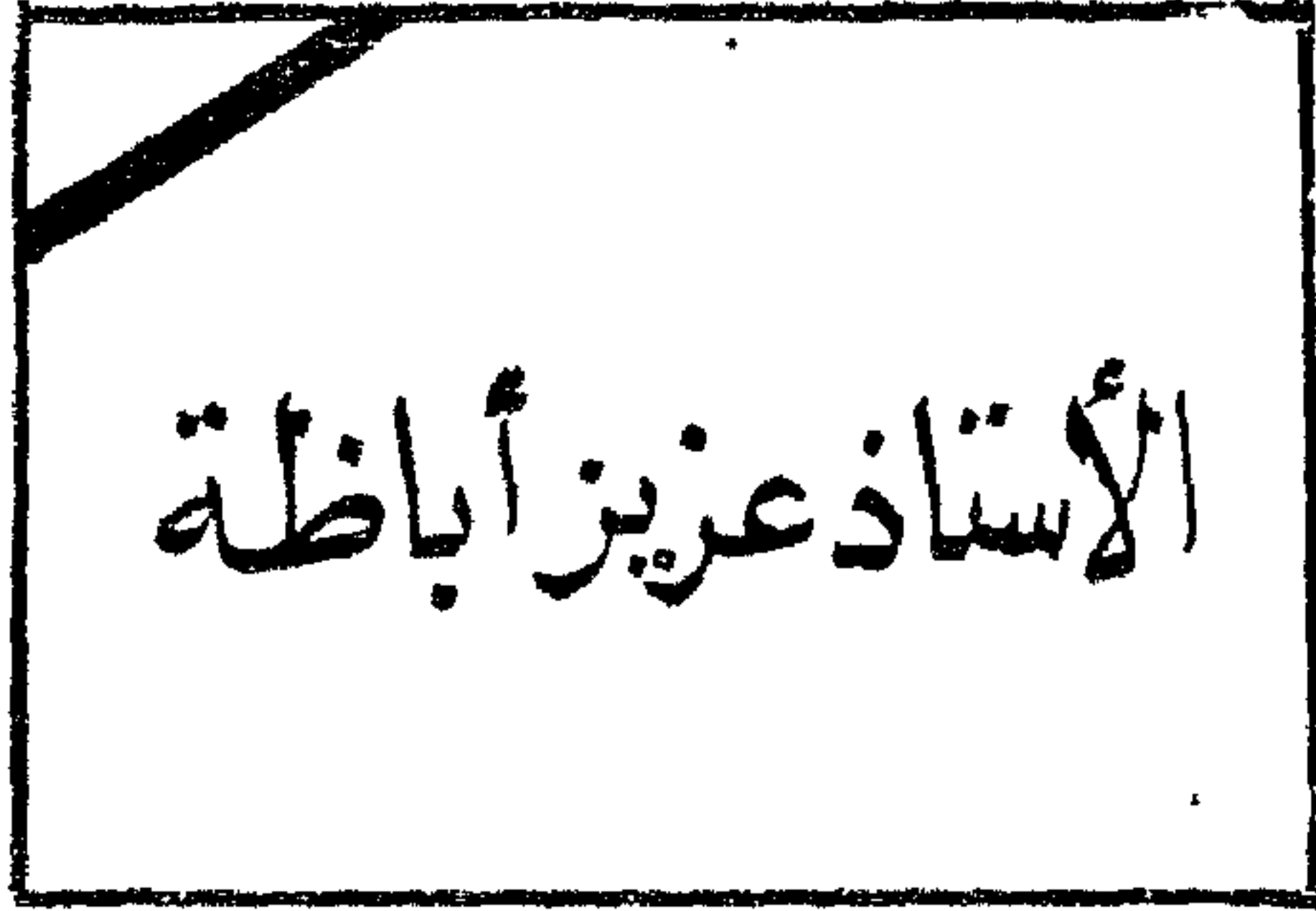
أسرتنا من تكريم - نسأل المولى جلّ شأنه

أن يثيبكم عنه وأن يجزيكم بما أنتم أهلّ له .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته :

في الساعة الحادية عشرة من صباح الأربعاء ٢٧ من شوال سنة ١٣٩٣ هـ (الموافق ٢١ من نوفمبر سنة ١٩٧٣ م) أقام المجمع في داره بالجيزة حفل تأبين للمرحوم الأستاذ عزيز أباظة عضو المجمع ، وفيما يلي ما القى في الحفل :

كلمة الدكتور أحمد الحوفي في تأبين المرحوم :



وبحسبي في هذا المقام أن أعرف به
وبشعره في غير تفصيل وفي غير إجمال :

١ - حياته

ولد الفقيد في ١٣ من أغسطس سنة ١٨٩٨ بقرية (الربماية) مركز (منيا القمح) بمحافظة الشرقية ، وتعلم بالمدرسة الناصرية الابتدائية بالقاهرة ، ثم بالمدرسة التوفيقية والسعيدية الثانويتين بالقاهرة ، ونال شهادة الدراسة الثانوية سنة ١٩١٨ ، فالتحق بمدرسة الحقوق ، وتخرج فيها سنة ١٩٢٣ واحترف بالمحاماة ، ثم عين عضواً بالنيابة ، ثم عضواً في مجلس النواب .

وفي سنة ١٩٣٣ عين مديراً لتحقيق الشخصية بوزارة الداخلية ، ثم وكيلاً لمديرية البحيرة سنة ١٩٣٥ فوكيلاً لمديرية الجيزة .

سيادة الرئيس ،

سيداتي وسادتي :

عزيز عليّ أن أقف هذا الموقف لأؤبن عضواً بارزاً من أعضاء مجمع اللغة العربية شارك جاداً مخلصاً في أعمال المجمع أربعة عشر عاماً ، كان فيها أثراً عند زملائه جميعاً ، أحبوه لفنه ، وقدروه لعلمه ، وأعزوه لدماثة خلقه .

وعزيز عليّ أن أرثي شاعراً كبيراً من شعراء الروبة أثرى الأدب العربي بشعره وبمسرحياته ، ووقف صبوراً جليداً مظفراً في صد تيار العامية عن الشعر وعن الأدب كله .

لكن الأسى لا يرد قضاء ، ولا يعيد فقيداً ، فليكن عزيز أباظة حياً بيننا بآثاره ، وإنها لحديرة بأن تحيا وتبقى كما حييت وبقيت آثاره الهلغاء منذ العصر الجاهلي إلى اليوم .

وفي سنة ١٩٣٩ عين مديراً للقلوبية
بالفيوم فالمنيا ، ثم محافظاً وحاكماً عسكرياً
لمنطقة القناة سنة ١٩٤١ ، ثم مديراً للبحيرة
ثم أسيوط .

وفي سنة ١٩٤٧ اختير عضواً بمجلس
الشيوخ ، وعمل بعد ذلك في الميدان الاقتصادي .

وفي سنة ١٩٥٩ اختير عضواً بمجمع اللغة
العربية ، وكان في الوقت نفسه عضواً
بالمجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون والعلوم
الاجتماعية ، وعضواً مراسلاً بالمجمع العلمي
العراقي .

وقد شارك في ثلاث لجان بالمجمع اللغوي
هي لجنة القانون والاقتصاد ، ولجنة ألفاظ
الحضارة ولجنة الأدب .

وقد منحته الدولة الجائزة التقديرية سنة
١٩٦٥ ، وجاء في تقرير لجنة الجائزة بالمجلس
الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم
الاجتماعية :

أن الأستاذ عزيز أباطة يمتاز في إنتاجه
الأدبي بما وفق إليه من الإبداع الفني في شعره
الغنائي والمسرحي .

وكانت وفاته في العاشر من يوليو
سنة ١٩٧٣ م .

٢ - مؤلفاته

(أولاً) في مجال الشعر :

١ - أناث حائرة ، ديوان كله في رثاء
زوجته .

٢ - قيس ولبنى

٣ - العباسية

٤ - الناصر

٥ - شجرة الدر

٦ - غروب الأندلس

٧ - شهر يار

٨ - أوراق الخريف

٩ - قافلة النور

١٠ - قيصر

وهذه كلها مسرحيات شعرية
(ثانياً) البحوث والكلمات والقصائد المتصلة
بالمجمع اللغوي :

١ - كلمة عن سلفه أنوليتمان ألقاها في
احفل استقباله بالمجمع . (دورة ٢٦ جزء ١١
للمجلس ، المجلد العدد ١٤) .

٢ - المسرح الشعري ، بحث ألقاه
بالمجمع . (د ٢٧ ج ٧ للمؤتمر - البحوث
والمحاضرات) .

٣ - كلمة في استقبال الدكتور محمود
توفيق حفناوي (د ٢٩ ج ١٦ للمجلس -
المجلد العدد ١٧) .

٤ - لغة الشعر - كلمة ألقاها في مؤتمر
المجمع ببغداد . (د ٣٢ ج ٦ للمؤتمر ببغداد) .

٥ - الفصحى والعامية من زاوية
جديدة . (د ٣٢ ج ٩ للمؤتمر الثالث) .

٦ - قصيدة في تأبين رئيس المجمع
الأستاذ أحمد لطفي السيد : (د ٢٩ ج ٢٧
للمجلس - المحلة العدد ١٨) :

٧ - قصيدة في تأبين عضو المجمع الأستاذ
عباس محمود العقاد . (د ٣٠ ج ٢٧
للمجلس - المحلة العدد ١٩) :

٨ - تحية بغداد - قصيدة ألقاها في الجلسة
الافتتاحية لمؤتمر بغداد . (د ٣٢) .

٩ - قصيدة في تأبين عضو المجمع الأستاذ
محمد رضا الشبيبي . (د ٣٢ ج ٨ لمؤتمر
القاهرة) .

١٠ - قصيدة في تأبين عضو المجمع الشيخ
محمد علي النجار . (د ٣٢ ج ٢٣ للمجلس) .

١١ - قصيدة في تأبين الأستاذ مصطفى
نظيف عضو المجمع . (نشرت بمجلة المجمع
العدد ٢٨ في نوفمبر سنة ١٩٧١) .

١٢ - قصيدة تحية لرسالة العلم (المحلة
التي تصدرها جمعية خريجي كليات العلوم
برئاسة الدكتور عبد الحليم منتصر -
مارس ١٩٧٣) .

١٣ - كلمة أعدها لاستقبال الأستاذ
مصطفى مرعي بالمجمع اللغوي ، وألقاها بعد
وفاته نيابة عنه الأستاذ ثروت أباظة في يوم
الأربعاء ١١ من ذي القعدة سنة ١٣٩٣ هـ
الموافق ٥ من ديسمبر سنة ١٩٧٣ م .

٣ - شعره المسرحي

١ - المسرحية الشعرية لإنتاج زاخر أو
بستان ناضر يضم عشرات الألوان ، ففيها

عشرات القصائد والمقطعات ، وفيها ألوان
شقي من الموضوعات ؛ كالوصف والحرب
والحماسة والحكمة والغزل ، وفيها ضروب
من التكلم والخطاب والحوار والجدل ، وبها
شعر ينطق به واحد ، وشعر تنطق به
جماعة ، وشعر يعبر عن فرد ، وشعر يعبر عن
أفراد أو عن أمة ، وهي من أوزان شتى
وقواف عدة :

ومن هنا تجيء صعوبتها على الشاعر ،
وتجيء دلالتها على مقدرة الشاعر .

٢ - ولقد أثبت عزيز أباظة بمسرحياته
التسع ما أثبتته شوقي من قبل بمسرحياته أن
الشعر العربي قد يدير على الوفاء بما تقتضيه
المسرحية من عرض للأحداث ، وتصوير
للنفسيات ، وحوار على ألسنة الذكور والإناث
والكبار والصغار ، وتعبير عن أخلاق الأخيار
والأشرار والأقوياء والضعفاء والفرحي
والحزباء والسعداء والأشقياء .

وبهذا بطل ما لا كتبه ألسنة وسطرته أقلام
أن الشعر العربي كز عسر لا يطاوع الشاعر
المسرحي ، وأن الخيال العربي ضحل لا يستطيع
أن يخلق ولا أن يحلل ويركب ويبتدع
الأحداث والأشخاص ، وأن البلاغة العربية
ضيقة تعتمد على الإنجاز ولا تعرف التفصيل
والتوضيح والإطناب .

٣ - وإذا كان الشعر العالمي قد أتى عليه
دهر طويل وهو يصطنع الشعر وحدد لغة
للمسرحية فإن الرومانتيكية حاولت أن تنزل

الشعر من عليائه لتحل النثر محله ، وناصرها
في اتجاهها المذهب الواقعي والمذهب الطبيعي ،
ولكن الشعر لم يستسلم لهذه المنافسة ،
وآزره في ثباته الذين نهضوا لمقاومة الواقعية
والطبيعية .

وكان من الحاملين على الشعر المسرحي
نقاد دعوا إلى إيثار النثر بدعوى التزام الواقع ،
وبدا في بعض الأحيان أن الغلبة لدعاة النثر
وأنصار الواقع وبخاصة بعد أن راجت
قصص تشيكوف وإبسن وأضربهما ، حتى
إن الشاعر الكبير إليوت - وهو من أنصار
الشعر المسرحي - كاد يداخله اليأس من
أن يسترد الشعر مجده المسرحي فقال :

« يظهر أن عالمنا المعاصر حافل بالفوضى ،
وأن المجتمع الذي نعيش فيه تعوزه المقاييس
الدقيقة ، فصارت وظيفة الشاعر المسرحي
شاقة جدا أو مستحيلة » :

وكان لهذه الدعوة أو لهذا اليأس صدى
في مصر والعالم العربي ، فقال الدكتور
طه حسين « إن الشعر لم يعد صالحا للمسرح » :

وسرعان ما انتأت إلى جانب تلك الدعوة
دعوة أخرى أشد خطرا ، وهي الدعوة إلى
اتخاذ اللغة العامية لغة للمسرح ، بدعوى
الحرص على محاكاة الطبيعة ومجاراة الواقع .

٤ - وما أيسر الرد على الدعويين : دعوى
تنحية الشعر عن لغة المسرح ، ودعوى إيثار
العامية على الفصحى :

ومن الوفاء لذكرى شاعرنا عزيز أباظة أن
أنقل هنا بعض ما رد به :

قال في مقدمة مسرحيته شهريار : « إن
الشعر يحفظ الاتزان بين الواقعية والشكل
الخالص وبين العرض الحرفي والتجريد ، إنه
يحقق الهدف الفني الرائع ، فرسالته في كريم
أعراقها توطئ لنا سبيل فهم هذه الحياة
وإدراك قيمها وجمالها .

ويبدولي أن وراء الانفعالات المعروفة
والدوافع الشعورية - تلك التي تقتصر
المسرحية النثرية على عرضها - يبدولي أن وراء
ذلك تنبسط آفاق لأشعورية ليست بذات
حدود ، إنها الانفعالات التي لانستطيع أن
نجلو عواملها إلا إذا تجردنا من أنفسنا ،
وسمونا فوق أفعالنا وتجاربنا ، إنها الحقائق
الخالدة التي لا يسجلها إلا الشعر بإيقاعه .
وقال أيضا : « قال أنصار الواقعية فيما
قالوا : وما التراكيب الفصيحة ؟ وما
الأسلوب الشريف ؟ الكلام بغيرهما أبين ،
والفهم أدنى وأيسر .

ثم برزوا مسافرين مصريين مجاهرين ، فدعا
فريق منهم إلى أخلاط من التعابير المتهافنة
الغثة من الشعر المنشور والنثر المشعور يقيمونه
باسم الحقد والعجز على أنقاض الشعر الأصيل .
ودعا فريق آخر إلى العامية يكتب بها
الناس قصصهم ومسرحياتهم لتقوم باسم
التقدمية أو الشعوبية على أنقاض تلك
الذخيرة الربانية من النثر العربي المحكم ،
وساقوها دعوة أدبية فنية ، وهي دعوة

أثيمة خبيثة تكمن وراءها مساندات مظاهرات نفوس "سقيمة عطاش لهدم كل ما هو مأثور من ترات العصور ، وكل قيم من ذخائر الحضارات التي هذبها الزمن وأغلاها العتق . من الحق لكم ومن الحق عليكم أيها الخالدون أن تجهرُوا بأصواتكم - وهي في هذا المقام من أصوات النبوة - مطالبين كل دولة عربية أن تطهر صحفها وإذاعتها ومسارحها الجادة من خبثين قاتلين : خبث مساندة العامة وإشاعتها باسم التخفيف والتيسير ، وخبث مجاهرة الأدب بعدوان سافر يهون من أقداس شعره ونثره باسم التجديد والتطور ، فإن فعلتم - وإنكم لفاعلون - فنحن الأعلون ، والله معنا ^(١) .

أرأيتم إلى اعتراضه بالعربية الفصحى لغة للأدب ؟

ثم أرأيتم إلى حملته على العامة وأنصار العامة ؟

وإلى دفاعه عن الشعر لغة للمسرحيات الجادة ؟

وما من شك في أنه محق فيما قال ، لأن الذين دعوا إلى العامة لغة للمسرح بدعوى مجازاة الطبيعة والواقع واهمون ، فإن الواقع الذي ينبغي أن يتوخاه مؤلفو المسرحيات ليس هو واقع اللغة التي يتفاهم بها الناس في حياتهم اليومية وشئونهم المعتادة ، بل هو الواقع الفكري والعاطفي والنفسي للشخصيات ، بحيث لا تصدر الحكمة عن

أحق ، ولا تنطلق الفلسفة من جاهل ، ولا يحجى الهدى على لسان ضال ، ولا يبدوجبن من بطل . . . الخ .

وعلى الذين يتحمسون للواقع أن يسألوا أنفسهم أسئلة شتى ، منها :

هل يتناسب الواقع ورقعة المسرح الصغيرة التي لا تمثل شيئاً من ميادين الحياة الفسيحة الرحبة ؟

وهل يتفق الواقع وتلك الأزياء والمناظر التي يشهدها النظارة على خشبة المسرح ؟

وهل يتشابه الواقع وهذه المشكلات والعقد والحلول التي تعرض في ساعتين أو ثلاث وقد حدثت في شهور أو أعوام ؟

على أن الترام الفصحى يتيح لأبناء الأمة العربية جميعاً أن يفهموا ويتذوقوا ما قرضه شاعر المسرحية ، لأن الفصحى لغتهم الأم التي يتوافون عليها ويتفاهمون بها ويتواصلون بأسبابها ، أما العامة فهي أشتات وأصناف تختلف باختلاف الأقاليم ، بل تختلف في الإقليم الواحد .

فلا عجب أن اتسمت مسرحيات عزيز أباظة بالبيان المتخير الأخاذ، وبإجراء الجديث الواحد على وزن واحد ، وبالحرص على سلامة التعبير من اللحن أو الركافة ، حتى إنه قلما قصر ممدوداً أو مد مقصوراً مع علمه أن هذا في الشعر رخصة .

(١) البحوث والمحاضرات ١٥٦، سنة ١٩٦٠ - ١٩٦١

وإذا كان في مسرحية (أوراق الخريف)
قد استخدم كلمات مما يدور على ألسنة
العامية ، فإنه قد قصد إلى تسهيل الفصحى من
ناحية ، وإلى الدلالة على صحة هذه الكلمات
من ناحية ، مثل :

حسادة ، روق ، عجائب ، البخت ،
مبسوس الذرة ، تعكير المزاج ، من غير
كلام .

٤ - العروبة في شعره

كان عزيز أباطة شاعراً معترفاً بعروبه لغة
ودماً ووطناً ووجداناً وحضارة وآلاماً وآمالاً
وثقافة .

والعروبة في شعره مظاهر جهر بها مرات
على لسانه ، أو أدارها على ألسنة الشخصيات
في المسرحيات .

١ - فقد زار قرطبة ، وطوف بأرجائها ،
وتلبث عند معالمها العربية ، وأطال الوقوف
في مسجدها وقبالة مثننته ، فخليل إليه أن قلبها
ما يزال يعتصره الألم ، وأن حسراتها على
عصرها العربي الذهبي نائرة لم تحمد ، وتذكر
قصر الزهراء الذي كان قطب السياسة العالمية
في عهد عبد الرحمن الناصر ، وتخليل عظمة
قرطبة وآدابها وعلومها وحضارتها والوفود التي
كانت تهرع إليها ، لترتوى من مناهلها ،
فقال في قصيدته (وقفة على قرطبة) :

يا جارة المسجد البالى ومثدنة

الله كان ينجى من مشارفها

ماذا دهاها فأمتت وهى ناهدة
في غير ما ألفتته من معاطنها ؟
وقفت في طلل الزهراء محتشعاً
والنفس نهب لعات من عواصفها

أرنو فيرتد طرفي راعشاً وجلاً
كهائب اللجسة الكبرى وخائفها

طوّفت بالطلل الأسوان أسأله
أين الخلافة في حيصني خلائفها ؟

أين ابن بجدتها شعّت حضارتها
سنأ على سالف الدنيا وآنفها ؟

الناصر الظافر الخشى جانبها
في حيثما دب ساع في تنائفها

البازل العلم عن أعلام جامعتها
تدنى الثمار مزكّاة لقاطفها

لا ظل روما ولا أفياء قدوتها
بمجزئ العقل عن ملتف وارفها

ذكرت يوم الوفود الضخم ساعية
للقصر ترفل في ضاحى ملاحفها

فزف كل كبير من عواهلها
ونخف كل وقور من أساففها

ساقوا الهدايا وساقوا بينها خطباً
أنسأهم الروع طرفاً من طرائفها

ثم تبدو الحسرة في قوله :

لم يترك الدهر من راووق أندلس
إلا شفافاً راح من عوارفها

لمنى على حسنها الداوى وزهرتها
وحاليات الخواشى من رفارفها

وقلت : أين حضارات ومعرفة

أظل هذا الوري موشى وارفا ؟

وأين هدى تهدي من صحائفها

وأين نور تجلى من مصاحفها ؟

يا ويحها ذكريات هيجن بي حرقاً

تنساب في راسب الذكرى وطائفها

٢ - ودعا إلى وحدة العرب ، وحرص

عليها ، ونفرهم من الفرقة والانقسام

والتخاذل ، ففي مسرحية (غروب الأندلس)

أدار حواراً بين محمد بن سعد الزغل شقيق

السلطان أبي الحسن وولى عهده وبين ابن

سراج وعائشة وموسى بن أبي الغسان ، فصور

أسى الزغل من الفتن المشتعلة بين العرب ،

وبغضته لتأريثها ، واستنكاره الجنوح إلى

مشرية على الولايات العربية المحاورة ،

في الوقت الذى يجب فيه على العرب أن يتآزروا

كالبنان المرصوص ليردوا هجمات الفرنجة ،

فيصونوا حصن العروبة ، ويفتدوا عزة

الإسلام :

عرضتم لضخم الأمر لم تتذكروا

عواقب قد تبدو لكم وتغيب

أتأريث أضغان وإيقاظ فتنة

تلك قوائنا والعدو رقوب ؟

إذا لم نقف صفاء هلكننا وأطبقت

قواطع تفرى ملكنا ونيوب

فلا تطمسوا الإسلام إن شروقه

سيغشاه مما تزعمون غروب

وصور في مسرحية (العباسة) سحق

زبيدة على تفرق العرب بالشام ، وكيد

بعضهم لبعض وعجبها من العصبية الحمقاء

بين اليمانية والنزارية وهم جميعاً أبناء عمومة

يستظلون براية الإسلام :

وهل كان بالشام غدير الشفا

ق كل شقاق له مقطوع

عسانية أو نزارية

وبينهما رحم تجمع

ولو أنهم تزكوا راجعوا إلى

أناة وعن جهلهم أقلموا

٣ - وأشاد بوحدة الدم ووحدة الدين

والوجدان المشترك في وثيق العلائق بين العرب

وإن تعددت أقاليمهم وتناوت ديارهم ، فصور

هذا في مسرحية (غروب الأندلس) على

لسان الأميرة عائشة زوجة السلطان أبي الحسن

في حديث بينهما وبين السلطان الغورى حينما

جاءت من الأندلس إلى مصر لتستعجده على

الفرنجة :

حييت ياملك الملوك ولم تنزل

أعلاهم وأعزهم سلطانا

وبقيت للأمم الشقيقة موثقلا

في إدها ومناصراً معوانا

قد آن أن أمضى إلى وطني وإن

كانت دياركم لنا أوطانا

الدين قرى والعروبة لحمه

ولعل أقوى الآصرات أسانا

تلك الوشائج وحدث ما بيننا

وأن اختلفنا راة ومكانا

فرد عليها الغورى مستجيباً ملبياً نداء
العروبة ، معتزماً على نجدة عرب الأندلس
بجيش عربي لحب مظفر يدحر أعداء العروبة
والإسلام :

سنشهرها حرباً ضروساً مهيدة
ونبعثه جيشاً كثيفاً عزمتمها
يرد عن الإسلام كيد عدوه
ويحمي حمى دولاته أن تهدمها
٤- وإن الاعتزاز بالعروبة وإعزازها
والحرص على حمايتها التجلى في كثير من
مشاهد مسرحية (العباسية) كقوله على لسان
الرشيد للشاعر منصور النمرى :

بل قل فما فضل أمــــــــــــــــة
إذا لم يؤرخ مجدها شعراؤها
إذا العرب استعلت بفن شأت به
سواها فهذا شعرها وغناؤها

وفي المسرحية تصوير لزبيدة وهي تحض
هرثمة على التنكيل بالبرامكة ، خشية على الملك
العربي أن يقوضوه وعلى الإسلام أن يرتفعوه ،
بعد ما تبين لها وللعرب أن البرامكة أبطروهم
الحاه والسلطان والثراء ، فجعلوا يكيدون
للعرب ، ويتطلعون إلى بعث ملك كسرى :

لاتناموا عن جعفر فله كالد
تب عين يقظى ونوم مطار
لست أطوى له سخيمة صدر
لا ولا بينه وبينى نار
غير أنى أخشى على الملك منه
وعلى عترة النبي أغار

وفما تصوير للقائد العربي الفضل بن الربيع
ناقماً من البرامكة ما تنقمه زبيدة في قوله
للأمير جعفر بن الهادي :

فقل لأهل الزيغ من فارس
من كل زنديق الهوى مشرك
لن تبالغوا في العرب أوطاركم
سيمحق الله بنى برمــــــــك

وفي المسرحية صور من شكاوى الشعب
إلى الرشيد مما يقترفه البرامكة وعمالهم من
قسوة وظلم ومحاباة ، مثل قول أبي الجهم :

أمين الله أدركنا
فإننا مسنا الضــــــــــــــــر
نعيش العيشة الدنيــــــــــــــــة
ويهننا الأجنب الغمــــــــــــــــر
وقول مخلد :

أترضى أن يجيعونا
وأنت الوفــــــــــــــــر واليســــــــــــــــر ؟
وأن نمسى بــــــــــــــــلارى
وأنت البحر والقطــــــــــــــــر
وقول أبي الجهم مرة ثانية في تفصيل مثير :

وذنبانا هما الهــــــــــــــــون
لسدى الظــــــــــــــــالم والفقر
فلسنا من بنى برمــــــــــــــــة
لك لا يعصى لهم أــــــــــــــــمر
نماهم للعلا كــــــــــــــــرى
ومانى ومنو جهــــــــــــــــر

ولكننا من العرب
 وخظ العرب من زوا
 قریش هل لهما وزن
 لدى الأعلاج أو قد ر؟
 ومثل إثارة أبي الجهم لنخوة الرشيد
 في قوله :

ولكن مي زوا جنسا
 من الناس على جنس
 وفي الحق فأين العسر
 ب من مشيخة الفرس ؟
 ثم تعقب عجوز على هذا بقولها للرشيد :

أجیرنا بت أجورا
 من الله ومشـنـكورا
 فيلتهب الرشيد حنقا على البرامكة ، ويبدو
 حنقه وعزمه على التشكيل بهم في قوله
 لجعفر البرمكي :

وسلبتم جاه الخليفة جهرة
 وتركتموه دمية في هيكـل
 أترقم مثل الملوک وأمتی

جوعى تدافع في الحضيض الأسفل
 هـ - كانت عروبة عزيز أباظة عقيدة تجلت
 فيما أسلفت من مظاهر ، وتجلت في معرض
 آخر. هو المقابلة بين الشعر العربي والشعر
 الغربي ، فقد كان له بحث منذ ثلاثة عشر
 عاما وازن فيه موازنة سريعة بين الأدب

العربي والأدب الغربي ، ثم أعد موجز هذا
 البحث للنشر في آخر أيام حياته وإن لم يظهر
 إلا بعد وفاته (١) :

قال إن الشاعر العربي يؤثر الإيجاز الجامع
 لأطراف الفكر أو الشعور ، وضرب أمثلة لهذا
 منها أن شكسبير أطال في تصوير جنون الغيرة
 في مسرحية (عطيل) حتى انتهت غيرة الزوج
 بقتل زوجته البريئة ، ثم بندمه ، ولكن
 الشاعر العربي ديك الحن ألم بهذا في إيجاز في
 قوله :

رويت من دمها الثرى ولطالما
 روى الحوى شفتي من شفتيها
 حكمت سيني في مجال خيانتها
 ومسداعي تجري على خديها
 ورأسين جمع في (أثالي) أطراف الحقد
 الأسود ، وعرض للانتقام والمقت على الرغم
 من الود والرياء والصفاء المستحدث ، على
 حين أن الشاعر العربي وجد مقنعا في قوله
 المركز :

وقد ينبت المرعى على دمن الثرى
 وتبقى جزازت النفوس كما هيسا
 وموليير تحدث في سخرية عن البخل
 والتقتير ، واستقصى ظواهر تلك النفس
 المريضة وبواطنها ، ولكن ابن الرومي أرسل
 في بيت واحد صورة ناطقة حية للبخل

(١) مجلة قافلة الزيت - جمادى الثانية ١٣٩٣ (يوليو ١٩٧٣ م) .

لا يغض من كمالها أنها موجزة لامشاهد فيها
ولا فصول :

ولو يستطيع لتقتير سيره
تنفس من منخر واحد
ثم قال إن الأدب العربي سبق إلى الإشادة
بالحرية والديمقراطية والاشتراكية والتعاون
والسلام وضرب أمثلة لهذا ، منها قول أبي
العلاء :

ظلموا الرعية واستجازوا كيدها
وعبدوا مصالحها وهشم أجراؤها
وقول الشاعر :

الحسطين غنيهم بفقيرهم
حتى يصير فقيرهم كالكافي
وقول معن بن أوس :

دعاني يشب الحرب بيني وبينه
فقلت له : لابل هلسم إلى السلام
هـ - الإسلام في شعره

أما مظاهر الإسلام في شعره فهي كثيرة
تبدو في ضروب شتى من حالات اليسر
والعسر والفرج والضيق والقوة والضعف .
١- فالجهاد للذود عن الإسلام وحماية
المسلمين فريضة يتسابق في النهوض بها المسلمون ،
ويتنافسون عليها ، معتقدين أن الله ينصر من
ينصر دينه ، وأن قواه الخفية الغلبة تمدهم
بجنود لا يرونها .

يتجلى هذا في حوار بين القاضي سنجر
والملك وابن مطروح من مسرحية (شجرة
الدر) :

ابن مطروح للملك :

حيثك مصر فقد حميت ذمارها
والخطب فوار المـراجـل حـلـى
ودفعت عنها المعتسدين وسمتهم
عنتاً فصنت كنانة الإسلام
الملك يرد على مدح ابن مطروح :

لم أرم - شاعر مصر - حين رميتهم
بل كان ربك ذو الحلال الراى
والمجاهدون الذين افتدوا الإسلام بدمائهم
وأرواحهم ، وانتصروا على أعدائهم ،
لا ينسون وهم يباهون بانتصارهم أنهم نصروا
دينهم إذ وقوا من الغزو بلادهم ، وكفلوا
لوطنهم الحرية والقوة والعلاء ، يقول أقطاي
لقلاوون في مسرحيته (شجرة الدر) :

قل لي : أما نحن الذين تحررت
مصر بخـر سيوفهم ودمـاهم ؟
ذاق الصليبيون غضبتنا فما
صبروا على المسوت الذى غشاهم

ويقول قلاوون لبيرس وأقطاي :
أقطاي نحن ثلاثة لم نختلف
فيا مضى فلنبتق متفقينا
أسيافنا لم تُجبل عن أغمادها
إلا وقت عرضا لمصر ودينها
٢- ولما ضل بعض الحكام المسلمين
سواء السبيل فحالفوا الصليبيين على مصر ،
واستعانوا بهم ، حزت الآلام في نفس شجرة
الدر وودت لو أنهم استعانوا بالخليفة وحده :
لو أنهم قصدوا الخليفة وحده
قلنا - وإن لم ينصفوا - لم يسرفوا

لكنهم ركنوا إلى أعـدائنا
مستنصرين بهم ولم يتعففوا

وعدوا الفرنجة بعض مصر فقل لهم
الله مانع مصر مهما تُرجِفوا

وإن شجرة الدر لتعجب من عدائهم لها
وتغاضيم عن تطبيقها للشورى التي أمر الله
بها ، وتعاميمهم عن دحرها للصليبيين وحمايتها
للإسلام :

أفـنـا قـمـون على أنى قبلت
الشورى وأحكام الكتاب أمانى ؟

أم غاضبون لأنى أوقعت بسـال
إفـرـنـج فاعتصمت عرى الإسلام

٣ - وهو يصور مكانة العلماء عليـة لا يصح
أن يمسه أحد ، ويحقر من يتخذ الدين منهم
أحبولة للكسب أو الجاه أو الثراء ، فإنه لما
حاول المفتى أن يخدع شهریار فخابت
مشورته ، قال له :

انصرف يا محقر العلم شر الـ
علم ما كان نهزة للشر

إن للمسلمين ديناً جليلاً
صافى النبع من رحيق السماء

قد لصقتم (١) به اللصائق حتى
تترفوا فى جهالة الجهلاء

٤ - وهو يردد فى مسرحياته إيمانه العميق
بأركان الإسلام وتعاليمه وآدابه . من ذلك
أن الله سبحانه وتعالى علام الغيوب ،

(١) الصواب الصقتم .

ومدبر الكون ، ومانح القوى والقدر ،
علمه سابق ، وقضاؤه واقع .

نجد هذا فى قول سنجر للأمير فى مسرحية
(شجرة الدر) :

مولاي لايزعجـاك ما بـلـغت من
نبأ فإن الغيب سر مضمـر

قل للمقدر للعباد حظوظهم
الله فوقك قادر ومقـدر

ونجد إيمانه بالبعث فى قوله بمسرحية
(أوراق الخريف) :

قولى لها سأظل حافظ عهدـها
حتى تجمعننا الحياة الثانية

وكذلك إيمانه بالقضاء والقدر فى قوله
بمسرحية (أوراق الخريف) :

مهيب : أتؤمن بالمقادير ؟

قاسم : (فى دهشة) غير شك :

مهيب : وتؤمن من أنما غرضت كتابا .

قاسم : أجل :

مهيب : وتحس أن هناك حدا لحول المرء

من عاناه خابا ؟

ويؤمن بأن الله تعالى هو الهادى اللطيف

العليم الخبير الذى يستجيب دعاء عباده ،

قال على لسان العباسية :

يارب أدركنى بلطفك واهدنى

سنن السداد فقد سألت كريما

وهو تعالى العادل المحير الناصر ، قالت عليه
لعتبة في مسرحية (العباسة) :

حسبك الله لـــــــد زد
تِ لظى القلب استعمارا
إن لله لـــــــدلا
إن طغى السـدهر وجارا

وكثيرا ما نجد القسم بالله أو ببيته العتيق
في مواضع شتى ، حيث يقسم الشخص صادقا
فيما يقول غير متخذ من قسمه وسيلة للتضليل
والخداع وستر الافتراء . فالعباسة تعاتب
الرشيد ، وترد على ، زبيدة إذ اتهمتها
بكراهيتها فتقول :

حلفتُ بالبيت العتيق والحق يحلف
ماشفنى من فعلها حقد ولكن أسف

وجعفر يؤكد حبه للعباسة ، فيقسم
بالكعبة مثابة المسلمين ومحجهم :

أقسمت بالبيت تـــــــدى
عيس له وتـــــــب
أعناقها مهطعات
لقـــــــده تشرئـــــــب

والمحرمون عليـــــــا
ساقوا وألقوا ولـــــــوا (١)
لأنى حلمى المرجــــى
فى خاطر السـدهر يـــــــو

٥ - ويقتبس من القرآن الكريم ، كقوله
في مسرحية (العباسة) على لسان العباسة
لأختها :

« ورضا الرحمن يؤتبه من الناس السعيدا »
وقوله في (قافلة النور) على لسان جابر المنذر :
وقد أقمنا صلاتنا وقضينا
ذمة الله فاقض ماأنت قاض
وقوله على لسان سلفراس :

لكم هديكم فاتبعوا هديه
ولى دين آباءى الكابرينــــا
وقوله على لسان شهریار مناجيا ربه :

يارب رب مـــــــى
بغى فتمــــاب وكـــــــبر
ماكنت موبــــق عبيــــد
وإن طغى وتجــــبر

وقواه على لسان شهریار فى نقمته من شهرزاد :
اغريت بنى الحـــــــير
ة كالليل إذا يـــــــرى

٦ - وكثيرا ما خلق فى جو عال من الروحانية ،
إذ صور مواقف الخشية من الله ، والاستغفار
من الذنب ، أو صور الحنين إلى بيت الله
وإلى مثنوى الرسول عليه الصلاة والسلام :

(١) ساقوا الهدى وألقوا الجمار ، والصواب لبوا بفتح الباء لا بضمها .

قال على لسان (و داد) فى مسرحية
(أوراق الخريف) :

يارب هل أنت راض
أو غاضب ، من مجيى ؟
يارب إنك عدل
ورحمة من قريب
فهل ضللت سبيلى
وهل غوى أسلوبى
لا : لست أخشاك مهما
أضعف فأنت حييى
ما كنت رب مراء
بل أنت رب قلوب

وقال على لسان حادى القافلة المتجهة من
الحيرة إلى الحجاز فى مسرحية (قافلة النور) :

يانفس إن أفضيت للمنوره
وراوحتك الروضة المنضرة
حوت سنا الله وضمت منبره
وبضعة من ذاته المطهره
ألقيت يانفس غبار الأثـره
وانجلت كالطيف عنك القتره
وطفت من مائـرة المائـره
وذقت من مغفرة فـغفره
من قبل أن تقدمى بمعذره
ولم تكـد حسن شاه حاضنة بنت سلفراس
والى الحيرة تسمع هذا الخداء - وكانت
أسلمت - حتى أجابت على الحنين إلى مدينة
الرسول بـحنين مثله فقالت :

يا حادى العيس حملن البرره
إلى عوالى يرب المـزدهره

سر راوحتك الديم المستغزرة
ونخلى لأدمعى المنفجره
يثرب فى أخيلتى المصوره
إن لم تكن لؤلؤة فجوهـره
السكون داجى الليل وهى القمره
ألمحها فى النسمة المعطـره
وفى الوجوه الطلقة المستبشره
وفى هوى عصف ونفس خيره
وفى حياء الغادة المخـدره
وفى بريق النظرة المبشـره
هذى المنى ، لو أنها ميسره

٦ - أسلوبه

كانت موهبته الفطرية ، ودرايته بمتن
اللغة ، وذوقه المرهف ، وغيرته على الفصحى ،
، وحفاوته بها ، وحبها لها ، هى الدعائم
الوطيدة التى قامت عليها خصائص أسلوبه :

١ - فهو حريص على التأنق فى اختيار
الكلمة ، مشغوف بالرصانة فى نظم العبارة ،
نفور من العامية ، ومن الركاقة ومن
الإسفاف ، حتى إنه ليتجافى عن الكلمة
إذا ما أحس أنها فقدت رونقها لكثرة ما
لاكتها الألسنة أو تداولتها الأقلام. لهذا كان
يكثر من ترديد النظرات الفاحصة فى كتب
الأدب والمعاجم ليقتنص كلمات من الفرائد
الحسان يردها فى شعره ليكشف عنها أستار
الإهمال أو النسيان .

وفي غير ما تعصب أو تحيز أو جنوح إلى جدال أو مكابرة أو عناد أقول : إن في شعره وفي شعر كبار الشعراء من سابقه ومعاصريه علواً عن المستوى العام للقراء ، ولكن هذا لا يصح أن يتخذ ذريعة إلى لوم أو انتقاص ، لأن الأدب أو الفن أو العلم على اختلاف ضروبه وتعدد ألوانه لا ينبغي أن يكون في مستوى واحد من التذاني أو التوسط أو العلاء ، ذلك بأن له درجات من الأقدار والمستويات ، بل إن لكل مستوى من هذه المستويات درجات متباعدات متفاوتات .

وإنه لمن الشطط أن نكلف الشاعر العملاق التزام مستوى عام واحد ، لأننا بهذا الإلزام نقل حريته ، ونحتجزه في نطاق ضيق لا يتعداه ، ونحول بينه وبين التحليق والابتكار .

والعجب أن الذين ينكرون على الشاعر تجويده وسموه وعزوفه عن المستوى العام لا ينكرون أن الرسم والموسيقى والغناء لها بطبيعتها وبطبيعية القائمين بها درجات متفاوتات .

وعجب آخر أنهم يجحدون المستويات في لغة الأدب ولا يجحدونها في لغة العلوم ، لأن الحقائق العلمية التي تنشر على الجماهير يعتمد كاتبوها على التبسيط ليتفهمها كثير من القراء ، فإذا ما قصدوا بها طبقة أرق كان التبسيط أقل مقدارا وأضيق نطاقا ، وهكذا حتى تصبح ملائمة للمختصين بهذه الدراسات . فلماذا

لا يكون من حق الشعراء كلهم أو بعضهم أن يعبروا عن أفكارهم وعواطفهم بأسلوب سام فيه غموض على العامة ، لكنه واضح للمثقفين أثير عندهم ، تستحليه أذواقهم وتبش له نفوسهم ؟

على أن استمساك عزيز أباطة بالفصحى وكلفه بالانتقاء ليس معناه كلفه بالإغراب ، بل معناه اتخاذ اللغة العربية متناونحو وصرفاً وسياسة للتعبير عن العاطفة أو الفكرة ، وتنحية العامية عن الأدب الرفيع ، حتى لا تقع العين في حديقة الشعر أو بستان النثر إلا على وردة متفتحة ، أو جلمنارة متوهجة ، أو أقحوانة مشرقة ، أو آذريونة نضرة ، أو شجرة ثمرة ، أو دوحة وريقة أو نخلة رشيقة ، أو كرم دانية القطوف ، أو عشب كالديباج .

من ذا الذي يقرأ أو يسمع هذه الأبيات ولا يشعر بانتقاء اللفظ وجزالة التركيب :

قال على لسان الرشيد في مسرحية (العباسة) وهو يريد الوقعة ببني برمك لطغيانهم السياسي لكنه يتردد مخافة مما أشيع عن قصة أخته العباسية :

وإني لأخشى قالسة السوء في غد
نقاذف كالدفاع في البيد والمدن
بأنى من آجل العرض أثخنت فيهم
وللعرض قراضون بالشلب والطعن

وقال على لسان عائشة في مسرحية (غروب
الأندلس) :

الملك يلهو والحوادث حوله
متظاهرات والخطوب سراع
والقصر نفهق بالحناء قاعاته
ويبيت يروى لثمنها ويداع

والشعب مكدود القوى متخفر
إن الضعيف يصول حين يراع

الجور مضروب السرايق حوله
والهون والحرمان والأوجاع

قل للملوك اخشوا شعوبكم إذا
غضبوا وهم سغب البطون جيساع

وقال على لسان بشينة في مسرحية (غروب
الأندلس) :

أرى الأرزاء مسرعة خطاهـ

ونحن إزاءها نمشي الهـ

إذا لم نسبق الأحداث وثبا

تصلينا لظاها فاكترينـ

٢- على أنه أضاف إلى هذا التأنيق كلاما
بجرس الجملة وموسيقاها ، وشغفا بتمحسس
المواهمة بين الكلمة وسابقتها ولاحقتها ، وبين
العبارة وما تقدمها وما تأخر عنها ، كقوله
على لسان حسن شاه في مسرحية (قافلة
النور) :

مشوا في سناه ولبوا نـ

وعبوا هداه كتـ

ومن ذا الذي يقرأ هذه الأبيات أو يسمعها
ولا يستشعر الرنين بين الحروف المتحدة المخرج
أو المتقاربة المخارج ، أولا يحس موسيقى
الأسلوب الناشئة من تتابع كلمات متوائمة
الحرس متلائمة الوقع ، قال في (وقفة
على قرطبة) :

ماذا دهاها فأمت وهي ناهدة
في غير ما ألفته من معاطفها

طوفت بالطلل الأسوان أسأله
أين الخلافة في حضنى خلائفها

أين ابن بجدها شعت حضارته
سنا على سالف الدنيا وآنفها

البازل العلم عن أعلام جامعة
تدنى الثمار مزكاة لقاطفها

فزف كل كبير من عواهلها
وخف كل وقور من أساقفها

وإذا كان الحرس بينا في البيت الأول
بين (دهاها وناهدة) وبين (ألفته
ومعاطفها) وبيننا في البيت الثاني بين
(الأسوان وأسأله) و (الخلافة وخلائفها) ،
وفي البيت الثالث بين (ابن وبجدها)
و (سناو سالف) وفي البيت الرابع بين (العلم
وأعلام وجامعة) وفي البيت الخامس بين
(زف وخف) وبين (كبير ووقور) فإن
هذا كثير في شعره مثل قوله :

يارب رب مسـ

بغـ فـ

٣ - وشعره حافل بالتشبيه والاستعارة
والمحاز والطباق ، في مهارة ولباقة وطواعية
، كقوله :

أرنو فيرتد طرفي راعشا وجلا
كهائب الأتجة الكبرى وخائفها
وقوله :

وأن نـمـسـى بلا رى
وأنت البحر القطر
وقوله :

لم يترك الدهر من راووق أندلس
إلا شفاقة راح مسن عوارفها
وقوله :

حيثك مصرُ فقد حميت ذمارها
والخطبُ فوارُ المراحلِ حامى
وقوله :

طوّفت بالطلل الأسـوان أسألـه
أين الخلافة في حضنى خلائفها ؟

وبعد

فماذا نستوحى من احتفالنا بذكرى
عزيز أباظة ؟

إننا نستوحى دروسا وعبرا عظيمة .

١ - فترداد ثقتنا باغتنا وبشعرائنا وأدبائنا
الذين كتبوا بالفصحى منذ زمن بعيد ،
ومازالوا يكتبون ، فأثبتت الفصحى على
أقلامهم أنها ثرية مرنة طيعة قابلة للتطوير
والتجديد ، قادرة على التعبير عن أنماط
فنون الأدب وشئون الحياة .

٢ - ونعلم أن الشعر العربى ليس عاجزا
عن مسايرة المسرح كما قيل ، فقد استطاع
أمير الشعر أحمد شوقى أن يبطل هذه
الدعوى بمسرحياته التى ابتكرها ومهد بها
الطريق لمن جاءوا بعده واقتفوا أثره ،
فلما قضى حمل الراية بعده بيد فتية قوية
عزيز أباظة :

٣ - ومن الوفاء لعزيز أباظة أن أنوه
بوفائه وبتقديره العظيم لشوقى ، فى قوله :
« ثم أراد الله للشعر المسرحى أن يعرف فى
العربية ويزدهر ، فهدى إليه شوقى شاعرنا
الحالد فعالجه ، واستطاع قبل أن يختاره الله
لحواره ببضع سنوات أن يزف للشرق العربى
[مسرحياته النفائس] ، ولست هنا بسبيل تناول
مسرحية الشعر عند شوقى بالدراسة والتحليل
والنقد ، فإنه لن يرضينى - وأنا من أكثر
الناس إعجابا به ، وإكبارا له ، واستمدادا منه
- أن أجعل دراسة مسرحه قسما من بحث ، أو
بابا فى فصل ، ولن يواتينى الوقت حتى
إذا أنا حاولت ، ولكن ذلك لن يقف بى
أن أشهد بين أيديكم أن شوقى صاحب شعر
التمثيل كاد يرتفع إلى عليا المشارف التى
تفرعها شوقى قيم شعر الغناء .

وأشهد بين أيديكم إلى جانب ذلك أن
شوقى فى مآسيه المتعددة وفى ملهاته الواحدة
استطاع أن يدرس على طريقته جوانب من
النفس الإنسانية ، وأن يعرض لمشاعرها
بالتحليل الموفق ، والعرض المنمق ، واستطاع
أن يتناول الأحاسيس والنزعات القومية ،

وأن يشيد بها في نماذج قوامها الصدق وملاكمها
الجمال، واستطاع كذلك في أغلب مسرحياته
أن يفرغها في القوالب الحية من الفن
المسرحي، وأن يتحرر إلى حد كبير من سلطان
طاقته الغنائية الفارعة حتى يتسلل الحوار غير
فأصل على مقتضياته ، وغير مغل بالمعنى
الذي يتدافع فيه ، وغير مسمى لأسلوب
العرض ، وغير معوق لتتابعه وصلاته
وتدفق حركاته .

وكانت هذه الصوَى الهادية إلى طريق
الوحدة والقوة والعزة .

وما من شك في أن للأدب فضلا في هذا
كله لا يحدد ، وسبقا واضحا مشهودا
لا يستبعد . فعلى الذين يُنْغِضُونَ إلى الأدب
رؤوسهم أن يعلموا أثره العظيم في حياة الأمم
، وأن يعرفوا مكانته وأن يقدرُوا سِدْنَتَهُ
أحياء وموتى :

سيدى الرئيس :

سيداتي وسادتي :

إذا كان عزيز أباظة فارقنا ، فإننى أتخيله
بقامته الفارعة ، ووجهه المشرق ، وخطواته
المتشدة وصوته الجمهورى ، أتخيله مازال يخطر
بيننا في الجمع ، أو يناقش في كلمة ، أو
يخاور في فكرة ، وأتخيله هنا على هذه المنصة
نفسها يرثى زميلا ودع الحياة ، فيسكب من
ذوب قلبه ومن عصارة نفسه :

ثم قضت إرادة الله أن يبعد من كان دانيا ،
وأن يصمت من كان صادحا تاليا ، وأن
أرثى من كان بالأمس راثيا ، وعزأونا أنه حى
بيننا بأثاره وبذكره إلى ما شاء الله :

٤ - ولست أنسى أن هذه الذكرى تلهمنا
أن نشيد بجهود شعرائنا وكتابنا في مصر وفي
الأمة العربية ، وإنها لجهود عظيمة مخلصه
جديرة بالتقدير والثناء ، ذلكم بأنهم منذ
مشرق هذا القرن طالما هتفوا بالقومية العربية
وبالوحدة العربية ، وطالما تغنوا بما للعرب
من ماض مشرق مجيد يجب أن يتأسوا به ،
وطالما برموا بما قاساه العرب من حاضر
جزين خزيان لا بد أن يتحرروا منه ، وطالما
جلجلوا بما يشربون إليه من مستقبل كريم
بسام ، عليهم أن يجدوا لتحقيقه ، فكانت
هذه اليقظة العاملة ، وكانت هذه النهضة الشاملة ،

●●● قصيدة الأستاذ المعزى الوكيل :

تهاوى دراكا كالنجوم الزواهر
صاحبك ، فاصبر - إن قدرت - وصابر
خلا الدرب إلا من خطاى وبيدة
وأقف - إلا من شحوب مشاعرى
وأبقيت وحدى أجرج الحزن بعدهم
وأرشف كأس الدمع رشف المعاقر
وأمت تهاويل الغروب تروعى
كأن فؤادى فى مخالب كاسر
أنى كل يوم صاحب بعد صاحب
توسده كفأى ليل المقابر
أدفن قلبى فلذة بعد فلذة
فيالك من جسد على الدهر عائر
مضوا والصبا ، واستبقوا الحزن طاغيا
وذكري تشب الشجر فى كل ذاكر
وكنت أظن الدمع عوناً على الأسى
فزقنى فيض الدموع البوار

فياليت شعرى هل تهزم صبره
بفحواه شدوا وهو بين الحفائر
وهل شهدته مقتلته فغردت
جوانحه لحناً كالحن القياثر
وهل هزه يوم العبور فجمجمت
تجاليد روح فى الصفائح طامر
فغنى لوصالين فى الروح خطوهم
وغنى لبنائين صم المعابر
وهل خفقت أعلام سيناء فانتشى
كما رشف الندمان جريال عاصر
أحب ثرى مصر ، وغنى بقدسه
فلاحت ليه حصباؤه كالجواهر
وأذكت ليالى الرقمتين فواده
على شط مصر فى الضفاف النواضر
مضى الشاعر الشادى الذى طار شعره
فألم فى أفنانه كل طائر

* * *

* * *

مضى الشاعر الشادى بأحلام قومه
حميدا ، وأبقى لوعة فى السوامر
مضى لم ير النصر الذى بشرت به
أناشيدته فى كل بلاد وحاضر
أيا شيخه الفصحى ، وحراس قدسها
بتلك العقول الملهمات العباقر
تذودون عنها كل باغ يرومها
بسوء ورميها بحقد المكابر

ولم أر كالفصحى فإن بيانها
ليبرز أخفى ما اختفى فى السرائر
لعمرك ما عيت بمعنى ، وإنما
هو العمى فى بعض النهى والحواطر
ورام رماها بالقصور عن المدى
وما هو إلا قاصر أى قاصر

* * *

عجبت لقوم جددوا الشعر ضلّة
فجاؤا بشعر سائب متناثر
تجافوا به عن كل معنى وفكرة
كأن المعانى حجبت بستائر
ويصغى إليهم سامع القوم سائلا
أذلك شعرا أم تعازيم ساحر
رماهم عزيز بالمقال فأجفلوا
وأعول منهم زاحر بعد زاحر

وكرر عليهم بالقصيد يصوغه
فيبدع فى التصواغ لإبداع قادر
أقام عليهم حجة الفن باذخا
بشعر كسر الراح فى روح ساكر
مضى الشاعر الشادى الذى طار شعره
فألهم فى أفنانه كل طائر
مضى الحارس اليقظان وانتابه كرى
ينىء إليه كل غاف وسامر

* * *

صديقى ، وشيخى ، قد رحلت وإنما
أغالب فيك الحزن والحزن قاهرى
وأشهد فيك الخطب أنى حملته
وإن لم أكن - لما دهانى - بصابر

●●● كلمة الأسرة للأستاذ ثروت أباطة :

طالما بت بـوَادٍ مذنب
فاصعد اليوم إلى السوَادى الأمين
عند جنات موشاة الحلى
بين أنهار وأبرار وعين
ضيف ذى العزة جلت وعلت
بارئ الأنفس من حمأ وطين
غافر الذنب رحيم منعم
قابل التوب غياث المستعين
لم يمت من زایل الدنيا إذا
صب فى مسمعها بعض الطنين

يا عشيائى التى أبجـزـعـها
سامداً أدم رأسى بيمينى
زاكى اللوعة ملتاح الجوى
وأكف الأدمع محموم الأنين
لا تقولوا : من أخو البث الذى
هاجنا ؟ من صاحب اللحن الحزين ؟
النفاثات نفاثاتى أنسا
والشئون المستهلات شئونى
يا أودائى السنين ارتحلوا
هـزنى الشوق لكم فانتظرونى

او مہنتاً بلسانہ
 کان شعری الغناء فی فرح الشرق
 وکان العزاء فی أحزانہ

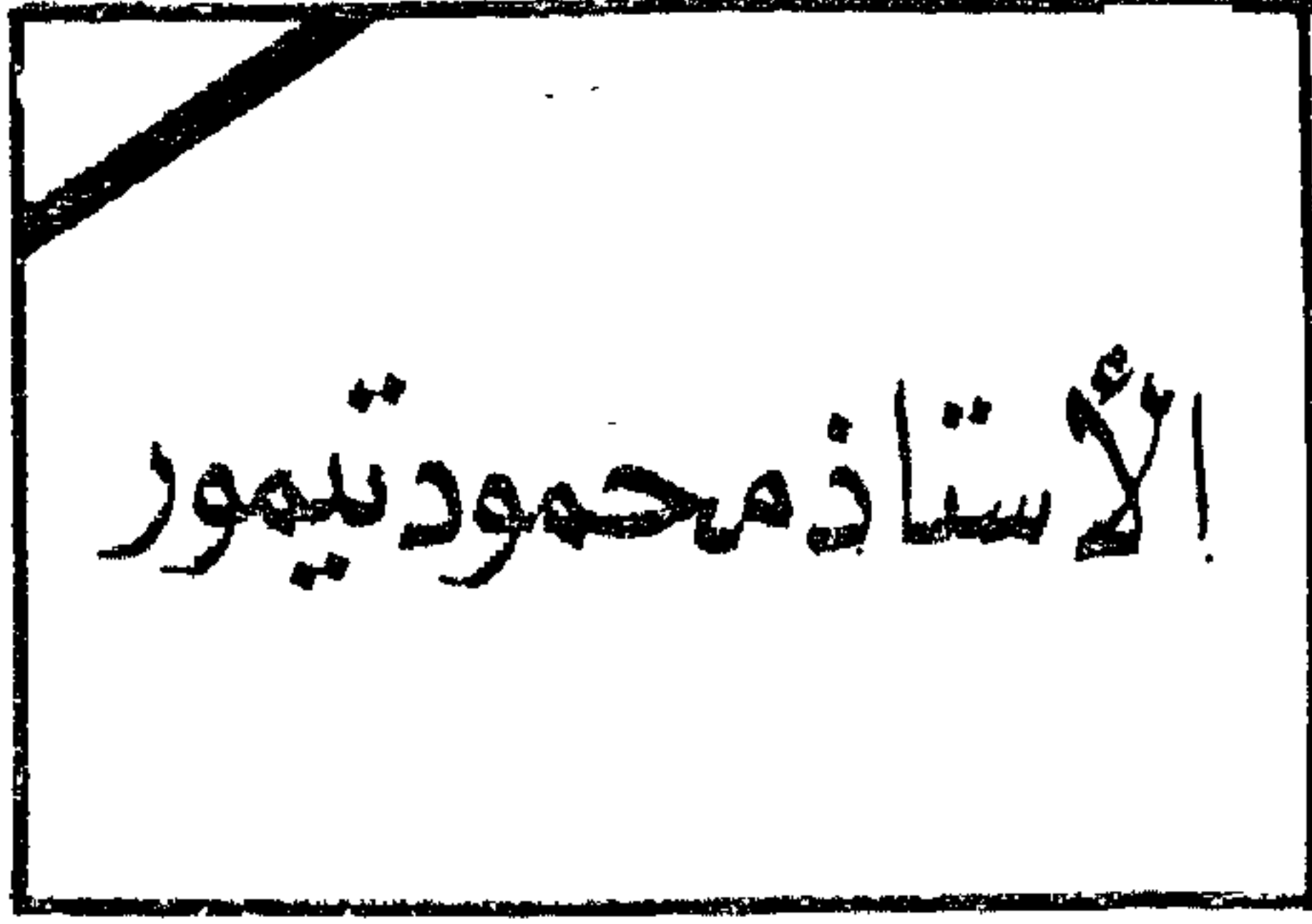
وكان لكم أنتم يا رجال الخلود شعركم ،
ومجمع حبيكم ، كما كنتم جماع حبه ونبض
فؤاده ودمعته اعتراضه وإكباره .

واليوم لم تبق إلا كلمة عزاء تقولونها
وأنا أدري أنه أكبر عندكم من العزاء ،
وكلمة شكر أقدمها إليكم ، ومن أنا حتى
أقدم إليكم الشكر ١٩

فيا سدة الأدب ويا رواد الكلمة ، ويا
عماقة لغة القرآن لا تقولوا عزاء واستمحيكم
المغفرة ، فإنني لن أقول شكرا ،

في الساعة الحادية عشرة من صباح الأربعاء ٤ من ذي القعدة سنة ١٣٩٣ هـ (الموافق ٢٨ من نوفمبر سنة ١٩٧٣ م) أقام المجمع بداره في الجزيرة حفل تأبين للمرحوم الأستاذ محمود تيمور عضو المجمع ، وفيما يلي ما ألقى في الحفل :

كلمة الافتتاح للأستاذ زكي المهندس في تأبين المرحوم :



سيادتي وسادتي :

إنه ليحز في قلوبنا نحن أعضاء المجمع أن نرى الموت يتخطف زملاءنا واحداً وراء آخر ، وفي فترات متقاربة . فما تكاد تجف دموعنا على زميل راحل حتى تعود فتنهمر على زميل آخر . ففي سنتين اثنتين فقد فقد المجمع عدداً كبيراً من أعضائه العاديين الذين كنا نعز بهم ونعتمد في تحقيق رسالة المجمع على جهودهم ونشاطهم ... مصطفى نظيف ، عبد الفتاح الصعيدى ، عبد الرزاق السنهورى ، محمد عوض محمد ، مصطفى القللى محي الدين عبد الحميد ، على الجندى ، عزيز أباطه ... وها نحن اليوم نضيف إلى هذه القائمة الحزينة اسمين من أحب الأسماء إلينا ومن أعزهم علينا : محمود تيمور ، وطه حسين .

لقد كانت فجعية المجمع في تيمور

فجعية قاسية أليلة . لقد فقدنا فيه ثروه أدبية لغوية ضخمة ليس من السهل أن تعوض . فقد شارك الفقيه في كثير من أعمال المجمع ولجانه ، وكان له فيها آراء ومقترحات كان لها الأثر في توجيه أعمالنا ، ولكنه في السنوات الأخيرة عكف على ناحية خاصة من نواحي النشاط اللغوى وقصر عليها جهوده الجمعية وهى تعريب ألفاظ الحضارة . كان الفقيه يؤمن بإيماناً صادقا بأن تعريب هذه الألفاظ هى الرابطة الوحيدة التى تربط المجمع برجل الشارع أو بجمهور الشعب . وعكف الفقيه على هذه الناحية واستطاع أن يخرج هو ولجنه ألفاظ الحضارة التى كان يرأسها ، عشرات المئات من هذه الألفاظ الحضارية ، تناولت ملابس السيدات وملابس الرجال وأثاث المنازل وأدوات الزينة وأدوات بعض الصناعات ، وكذلك مصطلحات الفن من رسم وتصوير

ومسرح ، لكننا إذ نبكى الفقيد اليوم ،
لا نبكى فيه -ضجوا مجعياً نشيطاً منتجاً فحسب
وأنما نبكى فيه علما من أعلام الأدب ورائدا
من رواد القصص ، بل ونبكى فيه أديبا عالميا
تجاوز نشاطه الأدبي حدود البلاد العربية ،
فترجمت معظم قصصه إلى مختلف اللغات ،
وكرم في كثير من المحافل الدولية الأدبية .
أما أخلاق الفقيد فحدثوا عنها بما شئتم وكيف شئتم
فقد اجتمع له من الصفات والخلال والسجايا
ما قل أن يجتمع لكثير من الناس . شخصية
رقيقة مهذبة ، هدوء مع اتزان ، أدب جم
مع عفة في اللسان ، تواضع في عزة نفس
ولاحساس مرهف :

لقد عاصرنا الفقيد ، في الجمع أكثر من
أربع وعشرين سنة ، فما أذكر أني رأيته يوما
غاضبا من أحد ، أو ساخطاً على أحد ، وإنما
كان محباً للجميع محبوباً ومحترماً من الجميع .
رحمه الله وطيب ثراه وجعل الجنة مستقرة
ومأواه .

أما الآن أيتها السيدات والسادة ، فسيتولى
الزميل الاستاذ محمد خلف الله أحمد ،
تأبين الفقيد نيابة عن الجمع ، ثم يليه الزميل
الدكتور إبراهيم أدهم الدمرداش فيلقى كلمة
الشعر ، ويليهما الأستاذ أحمد فؤاد تيمور
فيلقى كلمة الأسرة . وليتفضل الأستاذ خلف
الله مشكوراً .

●●● كلمة الأستاذ محمد خلف الله أحمد :

أى صديقنا ، وزميلنا ، وأديبنا الكبير
«محمود تيمور» .

سلام عليك ، وأحسن الله عزاء الجمع
في فقدك .

وجزاك الله خيراً عن وطنك «مصر» بقدر
ما أخلصت لها ، وأضفت إلى أمجادها بفنك
العبقري وأدبك الإنساني :

وشكر الله لك ما قدمت للعروبة لغتها ، وأدبها
وحضارتها ونهضتها الحديثة :

أى زميلنا العظيم :

لقد فجعنا الموت فيك ، وفي نخبة من
الأصحاب ، توالى بك وبهم الركاب ،
في أشهر متتابعات ؛ فجعل الخطب ، وفدح
الأمر ، وكاد الأسى يغلب التأسي ، وإنما
لفراقكم لمحزونون ، ولكننا بقضاء الله راضون
وبالصبر متواصون ، وإنما لله وإنما إليه
راجعون :

أخى الأكبر تيمور :

إن كنت أرثيلك اليوم باسم مجمع اللغة العربية ،
الذي كنت علما من أعلامه ، وأسجل ما يسمع

به موقف التأبين من أياديك على الأدب واللغة وأنشر صفحات من جهودك في تحقيق رسالة المجمع ، فإنني أبكي فيك اليوم صديقا أصفيتيه وأصفاني الود ، وحظيت منه - على مدى ثلاثين عاما - برعاية الأخ الأكبر لأخيه وتعهده إياه بمدد متلاحق من ثمار إبداءه الأدبي والعلمي ، كل حلقة فيه ستبقى - ما حييت - ذكرى لإنحاء سمح ووداد خالص :

وسأظل أذكر - يا أخي - مجالسنا وندواتنا في أسرة «آداب الإسكندرية» ، والهيئة المحلية لرعاية الآداب والعلوم الاجتماعية بها ؛ فقد وقد كنت تخصمها بمزيد من حبك وعنايتك ، وتخفُّ لاستجابة دعوتها ، محاضراً ، أو متحدثاً ، أو محكماً في مسابقة أدبية ، وكان شبابها وكهولها يلتفون حولك ، سعداء بلقائك ، ظمأً إلى سماع حديثك ، حراساً على ألا يطول انقطاعك عن زيارتهم . ومنذ جمعت القاهرة شملنا في مجموعها وهيئاتها الفكرية والأدبية ، على مدى الخمسة عشر عاماً الأخيرة ، نماحي وتقديرى لك ، وزاد رصيدي من جميل الذكريات ، وفي الذكريات سلوى وعزاء .

رحمك الله يا صديقي ، وأكرم في الفردوس مثواك ، والسلام عليك .

سيدى رئيس المجمع بالنيابة ، سيداتى وساداتى ،

إن الزميل الراحل الذى اجتمعنا اليوم لتأبينه ، ولد في السادس عشر من يونيو سنة أربع وتسعين وثمانمائة وألف ، وانتقل إلى جوار الله في الخامس والعشرين من شهر أغسطس الماضى من سنة

ثلاث وسبعين وتسعمائة وألف - عن تسعة وسبعين من الأعوام ، يمثل ثلثها الأول مرحلة الإعداد والتفتح للرسالة التى اضطلع بها الفقيه على مدى خمسين عاماً ، وورث بها الفكر العربى قرابة ستين كتاباً في مختلف ميادين اللغة والأدب .

وقد سجل لنا الفقيه في بعض كتبه ؛ مثل : «شفاء الروح» اتجاهات الأدب العربى في السنين المائة الأخيرة ، وفي بعض مقالاته وأحاديثه التى نشرت في الصحف والمجلات - معالم المرحلة ، الأولى من حياته ، والعوامل التى وجهته إلى أدب القصة والمسرح ، والمؤثرات التى عملت عملها في إنماء موهبته الأدبية ، وأهم الكتب التى فتحت الآفاق الفنية أمام ذهنه وخياله ، وأشهر الكتاب الوطنيين والعالمين ، الذين أعجب في شبابه بأدبهم ، وحاول أن يحذو حذوهم .

وكان من بين ما أبرزه في بيئته الخاصة : أثر والده العالم المحقق «أحمد تيمور» ، ومكتبته الحافلة بكل نفيس من كنوز التراث والثقافة ومجالسه التى كانت تنتظم ببعض أكابر العلماء والمفكرين في عصره : كالشيخ محمد عبده و«الشنقيطى» ، و«رشيد رضا» ، ثم أثر شقيقه «محمد» ، الذى تطلع إلى بدء عهد جديد في حياة الأدب المصرى ، والذى مات في شبابه ، بعد أن شارك بنصيب وافر ، في التمهيد لنهضة الفن القصصى والمسرحى ، في الأدب العربى الحديث كما أبرز الفقيه أثر الحياة التى أتيح له أن يحياها في الريف ، وما كان لها بعد من صدى - في رسم شخصياته في قصصه الأولى :

وأخبرنا - فيما سجله من عناصر ثقافته وفنه - أنه كان في شبابه يستمتع بأدب «المنالوطى»^١ لإمام الرومانسية الأدبية في مصر، في الربع الأول من القرن الحاضر، وأن والده وجهه إلى قراءة «ألف ليلة وليلة»، فطالعه بأكمله، وكان يجمع من يرغب في الاستماع إليه من أهل المنزل ويعيد عليهم تلاوة ما قرأ، وأنه كانت له ولأخيه «محمد» محاولات ناشئة في التحرير والتمثيل في محيط الأسرة ومعارفها، وأنها حفظا - وهما صغيران - معلقة امرئ القيس، وكان ذلك بتوجيه من والدهما.

وقد قرأ محمود - بتوجيه من أخيه - «حديث عيسى بن هشام» لمحمد المويلحي» ورواية «زينب» لهيكل، وأغرم بقصص الكاتب الفرنسي الشهير «موباسان»؛ الذي توفي قبل ميلاد تيمور بسنة واحدة، واتصل بالقصص الروسي وخاصة قصص «تشيكوف» «وتورجنيف» وأتيح له أن يسافر إلى أوروبا، ف قضى فيها مدة معظمها في «سويسرة»، عكف فيها على الاتصال بالأعمال القصصية، وعلى تعميق ثقافته الفنية والأدبية.

* * *

هذه أهم المعالم الأولى في تكوين فقيدهنا وإعداد له رسالته؛ ومن حسن حظ التاريخ الأدبي أن الفقيه قد سجل خطوطها الرئيسية بقلمه ويسر بذلك مهمة المؤرخ والناقد وكاتب الحياة في التصوير والتحليل والتعليل لاظهار الأدبية.

ولعلنا نستبق ما سيحى من حد يشنا لنقول: إن هذين العنصرين البارزين من عناصر التكوين والتنمية لشخصية «تيمور» الثقافية والفنية، قد ظلا يعملان عملهما إلى آخر حياته. فقد كانت له طوال الثلاثين سنة الأخيرة أسفار إلى الخارج للاصطياف أو التماس السلوى بعد وفاة نجله محمد سعيد في شبابه أو طلباً للعلاج لنفسه أو لأسرته وزادته تلك الأسفار تنوعاً في مطالعته، واتساعاً في تجاربه وصقلا لقوة الملاحظة عنده، ورصيدها من المشاهد والمناظر وأنماط السلوك، وأثمرت - فيما أثمرت - بضعة كتب في أدب السياحة والرحلة تعد نماذج في براعتها وصدق فنها، وتؤلف خطأ هاماً من خطوط منجزاته.

أما حرص الفقيه على تنمية ثقافته، فقد ظل ملازماً له طوال حياته وظلت الكتب القديمة والحديثة والمعاصرة من خير جلسائه. والمتتبع لسلسلة أعماله يلاحظ شواهد تلك الصحبة الدائمة، [في أسلوبه، وفي مسرحياته، وفيما يرد من إشارات ومقتبسات في بحوثه ومحاضراته التي تؤلف خطأ ثالثاً في منجزاته - ثم في صورته الأدبية الوصفية التي رسمها لبعض الشخصيات البارزة المعاصرة في عالم الفكر والأدب والفن وفي كتاباته التي كان يتابع فيها إنتاج القهّاص المحدثين والمعاصرين بنقده، أو يقدم له أو يعرف بأصحابه، وهذه الصور الوصفية والكتابات الناقدة تؤلف مجالا رابعاً من مجالات النشاط الفني للكاتب الكبير. ويبدو أنه كانت للفقيه في تثقيف نفسه عناية خاصة بأن يكون ترتيل آيات

من القرآن الكريم أول ما يفتح به يومه حين يصبح . وآخر ما يختتم به حين يمسي ، وقبل أن يسلم أجفانه للنوم . وكان يجد في ذلك توفير الصفاء والنقاء لروحه ، حتى تشفى وتتحف وتسمو إلى الآفاق العاليا ، حيث ينابيع التطهر والصفاء والسعادة . وقد كشف عن سر هذه التجربة في كتابه : « شفاء الروح » ونصح لأخيه المؤمن أن يأخذ بحظ من هذه التجربة ، وهو يحتم نصيحته هذه بقوله :

أخى المؤمن :

مزية جلية أن يكون ذلك الدخر الخالد من كلام الله تراثاً دائماً منك ، تلمس فيه علاج نفسك وصفاء روحك ، وتمتلك به ناصية السعادة بمعناها الأسمى ؛ ذلك لأن هذا القرآن الكريم ينأى بك عن مكاره الأرض ليصل بينك وبين السماء :

إني ألمح هنا سرا من أسرار تلك الساحة الباسمة المطمئنة الوئيدة الخطو ، التي كانت تهل علينا من ساحة دار الجمع إلى قاعة المجلس ، فإذا هي « محمود تيمور » يدلف إلى مكانه المعهود في حياء وإشراق ، ليشارك في أنشطة الجمع ، وليعرض عليه صيده الثمين من ألفاظ الحضارة ، ومن البحوث الممتعة في الأدب واللغة .

وإن لغة تيمور وأسلوبه في كثير من أعماله الأدبية نضرة من أثر ذلك النبع السماوى الصافى

* * *

سادتى :

مضت مرحلة الفتوة والشباب بإرهاصاتهما الفنية ، وسار محمود تيمور في مراحل تعليمه وجاءت نقطة التحول في حياته - كما يقول حين أصيب بمرض التيفويد - وهو في التعليم العالى في سن العشرين ، وطال المرض وألزمه الفراش ثلاثة أشهر ، فلما أبل منه ، حال ضعف بنيته دون استئناف الدراسة ، وشعر باشتداد ميله للأدب ، فرسم لنفسه فيه دراسة شبه منظمة ، اتسمت بالجد والاستيعاب ، وسار في مطالعته فيه بمهذبة شقيقه . وحين كتب « محمد تيمور » أقاصيصه بعنوان « ما تراه العيون » ، ناحياً فيها نحو المذهب الواقعى ، مصوراً فيها مناظر مختلفة من البيئة المصرية وأشخاصها في أسلوب سهل رشيق ، أعجب بها « محمود » ، فكتب على غرارها باكورتته في القصة « الشيخ جمعة » مترسماً في كتابته المذهب الواقعى :

وفي عام ١٩٢٥ رأى أنه قد تجمعت عنده مادة من القصص يصح إظهارها في كتاب ؛ فطبع « الشيخ جمعة » وقصص أخرى .

من هنا ، وفقيدنا فوق الثلاثين بقليل ، يبدأ العمر الفنى للأديب القصصى الكبير ، ويتطور فنه ، ويتنوع إنتاجه بين أقصوصة وقصة ومسرحية ، وأدب أسفار ، ولقطات وصفية ، ودراسة لفن القصص ، ول بعض قضايا اللغة العربية ؛ وتأخذ شهرة أديبنا في الاتساع ، وتبرز في المحيط العربى : « شفاء غليظة » و « سلوى في مهب الريح » و « حواء الخالدة » و « الخبأ رقم ١٣ » و « كل عام

وأنتم بخير» و «إحسان لله» و «ابن جلا» و «اليوم نهر» و «أبوالهول يطير» و «ملاحم وغضون» ، و «شباب وغانيات» وغيرها مما وصل بتيemor إلى مرحلة الاعتراف الرسمي بمكانته ، علماً بين أعلام الفكر ، ورائداً لفن القصة في الأدب العربي الحديث . وتجاوزت شهرة «تيemor» الأدبية حدود الوطن العربي فترجمت بعض أعماله إلى لغات أجنبية وتسامع به بعض علماء الاستشراق والمعنيين بالآداب العربية ، وكتب عنه بعضهم - مثل «كراتشكوفسكى» الروسي و «عبد الكريم جرمانوس» الهجرى - كتابة تؤرخ مولد القصة المبتكرة ذات الطابع العربي الصميم ، وتشهد بارتفاع تيemor إلى مصاف الفلاسفة الأدباء ومعلمى الثقافات .

ومن أوائل ما يطالعنا من الاعتراف الفنى والرسمى بتيemor في بلده مصر - ومن المظاهر الأولى في صلاته بالجمع - أن اختارته وزارة المعارف والجمع اللغوى في سنة ١٩٤٢ عضواً في لجنة مسابقة القصة التى نظمتها وزارة المعارف ، ودعت فيها الأدباء إلى تأليف قصص ينتفع بها الطلاب وأمثالهم من المثقفين ، ثم أحالت أمر هذه المسابقة إلى الجمع لتتولى التحكيم فيها هيئة من نديتهم الوزارة لهذه المهمة بالاشتراك مع لجنة الأدب والنصوص بالجمع ، وبلغ عدد أعضاء تلك الهيئة أحد عشر ؛ بينهم لطفى السيد ، وهيكىل ، ومصطفى عبد الرازق ، وطه حسين

والجأرم ، وتيemor ، كلهم من قادة الفكر والأدب في تلك المرحلة (مجلة الجمع عدد ٥) وفى سنة ١٩٤٧ وافق مجلس الجمع على اقتراح لجنة الأدب فيه تتويج جميع الإنتاج القصصى باللغة العربية الفصحى لمحمود تيemor ، ومنحه وحده جائزة القصة فى المسابقة التى كان الجمع قد أعلن عنها من قبل فى ميدانى القصة والبحوث الأدبية ، وفى شهر مارس من ذلك العام أقام الجمع حفلاً عاماً بقاعة الجمعية الجغرافية لإعلان تلك الجوائز (مجلة الجمع العدد ٧) وألقى «فريد أبو حديد» كلمة القصة فى ذلك الحفل وفيها عرض للقصص وتاريخه وأهدافه ، ونصيب الأمم القديمة فى نشأته وتطوره ، كما أشار إلى طائفة من أعلام القصة وانتهى إلى التعبير عن اغتباطه بصريظهور طائفة من نوابغ أدبائها الذين توفروا على الإنتاج الأدبى فى شتى الفنون ؛ من شعر وأدب وقصص وأعلن أن الجمع اللغوى قد اختار فى هذا العام من بين المبرزين فى القصة ؛ الأستاذ محمود (بك) تيemor ، فأهداه جائزة القصص . إشارة منه إلى هذا المعنى ، واعترافاً بما للأستاذ الكبير من أثر محمود فى فن القصة فى أدبنا الحديث . [وقد أحصى المتحدث مؤلفات تيemor إلى ذلك التاريخ فكانت خمسة وعشرين كتاباً ، وبعد أن أشار فى إيجاز إلى الفرق بين آثار تيemor الأولى وآثاره الأخيرة قرر أننا لسنا نبالغ إذا قلنا إن تيemor أفد بلغ فى بعض قصصه الأخيرة مرتبة عالية ، يحق لنا أن نفاخر بها

أجمل « أبو حديد » ما تمتاز به طريقة تيمور

في ثلاث :

الأولى : أنه يرسم أشخاص قصته حتى إنك لتحس أنفاسهم ، وتلمح الحياة في سهولة حركاتهم :

والثانية : أنه يكتب في لغة سلسلة لا تحجب شيئاً من معانيه :

والثالثة : أن فنه يشيع فيه روح وديع من الإنسانية لا تحس معه مرارة في وصف حتى ليكاد يحب إليك الضعف الإنساني.

وكانما كان تتويج الجمع جميع الإنتاج القصصى لمحمود تيمور ومنحه وحده جائزة القصة ، جواز مروره لعضوية الجمع بعد ذلك بسنتين ، فقد ائتمر به صديقان له : « أحمد أمين وطه حسين » فرشاه ، ولم يكادا يعرضان هذا الترشيح حتى أجمع الجمعون على اختياره ، وإذا هو — كما يقول « طه حسين » في استقباله — قد التهمه الجمع التهاماً ، كما التهمته اللغة العربية الفصحى التهاماً من قبل . كانت جلسة الانتخاب في أواخر عام تسعة وأربعين وتسعمائة وألف ، وكان حفل الاستقبال في جلسة علنية في السادس والعشرين من شهر يناير سنة خمسين وتسعمائة وألف ، وناب عن الجمع في هذا الاستقبال « طه حسين » ، وتضمنت كلمته لمحة لتاريخ أسرة تيمور ، وحبها للعلم والأدب ، وما كان للجد والأب والعمة والشقيق من أثر في ميادين الفكر والشعر

والقصص والتمثيل ، وامتياز « محمود تيمور » في فن القصص على مفهومه الحديث امتيازاً سجل به لنفسه خلوداً في تاريخ الأدب العربى ، ووصف تيمورا بأنه كاتب حلول النفس ، عذب الروح ، خفيف الظل لا يثقل على قرائه مهما يطيلوا عشرته : ويؤكد طه حسين أنه حين تلقى « سلوى في مهب الريح » وهو في فرنسا مشغول بما كان يعكف عليه من قراءة الأدب الفرنسى مابداً يقرأ قصة تيمور حتى أتمها على طولها ، ولم يقطع القراءة إلا حين لم يكن من قطعها بد . وأعجب طه حسين — فيما أعجب به — من قصص تيمور « بشفا غليظة » : وطاب لطفه حسين في فن هذه القصة أن يلاحظ أن الذى استهوى بطل القصة وملك عليه لبه وفؤاده كله هو شئ في إحدى الشفتين ، نتوء ضئيل جداً في وسط الشفة ، لا ينفرج ولا يتسع ولا يتيح لهذه الشفة أن تستوى إلا حين تضحك الفتاة أو تبكى أو تأخذها ثورة من ثورات العاطفة .

و« طه » إذ يكشف هذا السر بخبرة القصصى الناقد المحنك ، يتجه إلى تيمور ، فيقول له :

هذا النتوء اليسير كان مدار قصتك كلها ، من أولها إلى آخرها : شئ يسير جداً في شفة فتاة من الفتيات ، رآها محام ففتن بها وهام بها الهيام كله وكذلك أنت في كثير جداً من قصصك ، أو في كل قصصك تصل أو تستكشف شيئاً يسيراً ،

وتجعله مداراً للقصة ، تعود إليه كأنه لحن من هذه الألحان اليسيرة التي يبني الموسيقى عليها قصته . فأنت تجد في قصصك فكرة أو صورة أو خاطرة دقيقة يسيرة ، تدور عليها قصتك فتستهوى وتخلب وتستلب القلوب (مجلة المجمع عدد ٨) .

هذا التأكيد للترويج الجمعي لآثار تيمور القصصية تبعه تأكيد ثان من الدولة في السنة التالية حين منحته جائزتها في الآداب على مجموعتي قصصه : «إحسان لله » و«كل عام وأنتم بخير» . وظفر تيمور في تلك السنة أيضاً بجائزة واصف غالى في باريس ، على كتابه المترجم إلى الفرنسية « عزرائيل القرية » .

ولم يكن تنويع آثار تيمور القصصية في سنتي ١٩٤٧ و ١٩٥٠ آخر عهد المجمع بتكريم تيمور حياً ، فقد رشحه بعد ذلك في سلسلة ترشيحاته السنوية لبعض أعضائه لجائزة الدولة التقديرية في الآداب ، وشاركت المجمع في هذا الترشيح بعض الهيئات الأخرى ، وأقر المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية منح تيمور تلك الجائزة في سنة ١٩٦٢ وجاء في تقرير لجنة الفحص بالمجلس : « وله نيف وخمسون كتاباً ، طبع بعضها عدة طبعات ، واستمتع بقراءتها عشرات الآلاف من قراء العربية ، واهتدى بهديها الفنى عديد من كتاب القصة والقصة القصيرة وامتد تأثيره من البيئة المصرية إلى أجزاء الوطن العربي الكبير ، وقد أحله النقاد منزلة

ممتازة بين رواد الأدب العربي الحديث وموجهيه وامتدت شهرته عن طريق كتبه المترجمة إلى مختلف الألسنة والبلاد ، فقد ترجم عدد كبير من أعماله إلى عدة لغات أوربية وآسيوية ؛ كالإنجليزية والفرنسية والروسية والصينية والإندونيسية والأردية .

وهو بذلك ذو منزلة رفيعة ممتازة في حياتنا الأدبية (جوائز الدولة - المجلس الأعلى ١٩٦٢) قد أيد هذه الألوان من التكريم الفنى والعلمى شكول من التكريم الرسمى فيما منحته الدولة إياه من الأوسمة الرفيعة .

سادتى :

نستطيع أن نقول إن العمر الفنى للفقيه -- وقد اعتبرنا بدايته سنة ١٩٢٥ -- قد بلغ تمام رشدته ونضجه حوالى منتصف القرن الحاضر .

وقبل أن تسلمنا هذه المرحلة إلى العشرين سنة الأخيرة من حياة فقيدنا والتي تبدأ مع بداية ثورة التحرير المصرية ، نتلث قليلاً لنشير إلى معلم من معالم المرحلة الماضية ليس بالقصة ولا المسرحية ولا الدراسة العلمية ، ولكنه كتاب رجلة من أبرع ما عرفه أدبنا العربى في هذا الباب ومن أشده استحواداً على النفوس : فناً وأسلوباً ؛ وقد شاء القادر أن يقوم تيمور بتلك الرحلة إلى أمريكا بعد سنوات قليلة من فجيعة وفجيعة الأسرة بفقد نجلها « محمد سعيد » في ريعان شبابه إثر مرض وقف الطب إذ ذاك عاجزاً عن علاجه .

وكتاب الرحلة هذا - وعنوانه «أبو الهول يطير» - سجل فني سجل فيه كاتبنا وصفاً ته ويريا لعظم ما رأى في طريقه وفي أثناء إقامته في نيويورك لعلاج السيدة قرينته . وصدره بإهداء مؤثر ، يقول فيه :

«إليك . . .»

إليك يا أعز من أحببته ، ويا أعز من فقدته .

إليك أنت ، يا من لا أسميك : . فإن اسمك لم يعد يجرى على لساني منذ أضعتك . إليك أخط هذه الرسائل .

إني لأبعث بها واحدة تلو الأخرى ، لعلني أتسم من توجيهها إليك برد السامى ؛ وإنها لتطالعك فى عاليك العلوى ، لعلها تحمل إليك خوالج القلب ونجوى الضمير !

تهتاج بين جوانحي رغبة متقدة فى الكتابة إليك ، فى مخاطبتك ؛ فى فك الأسار عن نفسى التى تنزى فى القيود والأصفاد . . .»

ت وتسير الرسالة على هذا المنوال الحزين حتى تغول :

« تلك هى الرحلة الأولى التى تتخلف فيها عن مرافقتى ، فلقد نعمت بصحبتك فى أسفارى جميعاً .

أنت تتخلف عني اليوم على الرغم منك ، وأنا أرحل الساعة بدونك على غير إرادة منى ، إنها يا بنى مشيئة القدر ، ومن يرد القدر إذا شاء . . .»

ت إني لأزعم الرحيل لا تسرية عن النفس ، ولا إشباعاً لفضول ، بل لأرافق شخصاً عزيز المكانة فى قلبينا ، يلتمس الشفاء فى تلك البلاد القاصية .

أما كان أحرى أن تكون مكافئ ترعى هذا العزيز فى غربته وتدعى مكانك أتوسد الثرى عنك ! . . .»

ويبلغ الإهداء ذروة المأساة حين يصل إلى ذكر المرحلة الأخيرة من مرض ابنه ، ويهمس الأب الحزين فى حسرة واستسلام :

« لقد تطايرت من بيننا يا بنى كما يتطاير العطر من قارورة رفعت سداتها فلم نعد نراك بأبصارنا ، ولكننا ظلمنا نشمك طيباً يشيع فيما حولنا من أجواء .»

وتبدأ الرسالة الأولى من رسائل الرحلة مؤرخة ٤ من أبريل سنة ١٩٤٦ ، وتشعرو أنت تقرأ الأسطر الأولى منها ، أن الأب الحزين [الصابر يُصر على أن يتحدث إلى ابنه فى كل صغيرة وكبيرة من شئون الرحلة ، حتى لا يفوته منها شئ ، وكأنه على عهد يرافق أباد ، ويشهد المشاهد معه ، بما فيها من جمال ومتعة ، وما فيها من غرائب ومفارقات ، وما تثير من شجون وذكريات ، وما يتمثل فى سلوك الأشخاص الذين يتحركون على مسرحها من بواعث الفكاهة والسخرية أحياناً ، ومن مسببات الألم والضيق أحياناً أخرى .

تصف الرسالة ما يحيط بالمسافر ، بعد أن تحدد ميعاد سفره ، من مشاغل مزاحمة ، ومن إجراءات معقدة ، يتعلم فيها المبتلى بها كيف يكون هجاءاً لجوياً ملجأً ؛ والمتاعب التي يصادفها حين يصل إلى الجمرك « تلك المؤسسة التي أنشأها قوم حاقدون على البشرية ، اتخذوها أداة تنكيل وسوط عذاب ، وضابط الجمرك الذي ترتفع يده بالخانم العظيم ، تضرب هنا وهناك في مهارة حرية بالتقدير . . . إنه ليضرب ضرباً محكماً كأنما يسدد الطعن في ميدان القتال . أخذ الضابط الهمام يجفف ما تفرد من جبينه في زهو النصر الغلاب . . ألم يؤد عملاً بالغ الجلالة ، عظيم الخطر ! إن ورقة تخلو من ضربة واحدة من خاتمه العظيم كفيلة أن تقضى على صاحبها التاعس بالحرمان » .

وتحين ساعة الوداع ! ويقول كاتب الرسالة :

« وشعرت بغتة كأن قلبي تهصره يد قاسية . . . »

وثارت بي فجأة ذكريات : . . ذكريات يزحم بعضها بعضاً . . . ذكريات شتى جليلة . وتافهة . . .

في هذا الموقف الدقيق تتخيل لنا حادثة قديمة ليست بذات بال ، أو يبدو لنا وجه نعجب كيف انفسح له مجال الظهور ! وتتداعى المشاهد في مخيلتنا وتتلاحق سراعا حتى تتجمع كلها وكأنها تدور حول محور

واحد ، ولا تفتأ تدور ، وننظر إلى المودعين نظرة ساهمة ، ونبدأ نودعهم مصافحين أو مقبّلين ، وتثور في النفس رواقد الشجون ، وينكشف للمرء منا تفاهته العجيبة ، وتنهار في لحظات تلك الشجاعة التي نتغنى بها مفاخرين ، فنغدو نحن الرجال ، أمام وداع طفل صغير ، قد تصاغرنا ، وأصبحنا في مثل حجمه وعقله وشعوره :
أى بنى !

« إن وداع الأحياء رائع مثير لأخفى كوامن الشعور ، ولكن ثقي أنه لا يقاس بشيء أمام وداع الراحلين » .

وتأخذك الرسالة الثانية معها على هذه الصورة حتى تصل بك إلى مطار « أثينا » ثم بعد استراحة قصيرة إلى باريس مارة فوق سويسرا ، ولا يفوتها أن تلقى معك نظرة على ما يتيحها المرور من جلال وجمال ، حيث الجبال الشوامخ تغم قممها بناصع الجليد ، كأنها نساك من الشيوخ متعبدون ، عليهم جلالة ومهابة ، ترفعوا عن زحمة الحياة ، وضجيج الأرض فخلوا إلى أنفسهم معتكفين . . ولا تلبث أن تلوح للأنظار باريس العظيمة ، غانية المدائن وفاتنة الحواضر ، ومحط الرحال من كل صوب وحذب ؛ ويستعد أبو الهول للهبوط ، ويتحسس صاحبنا وجهه فيصطدم بشعرات لحيته الخشنة تملأ عارضيه (وكان قد تحسس نذرها من قبل في طريقه إلى أثينا) فيقول : ويلاه من تلك اللحى الكريهة التي تطلق لنفسها حرية النمو في غير حياء

ولا تورع ! . : لقد نسيتك يا صاحبتى ،
سأقصدتوا إلى المغسل لأزيلك فى طرفة
عين ! .

وتصف تلك الرسالة بعض مشاهد باريس ،
وقد تغيرت الحال ومظاهر المعيشة فيها فى
أعقاب الحرب العالمية الثانية . ويسير صاحبنا -
فى فوج من زملاء الرحلة مترجلين - إذ ليس
ثمة من سيارة ترى ، ويبدأون يخترقون ساحة
« الكونكورد » فإذا بها قد ران عليها خمول ،

« وبدأت المسلة المصرية ، وسط ذاك
التجهيم ، شاحخة متطاعة فى ترفع وإباء ،
كالنبيل المصفد بالأغلال . إنها هى وسط
الظلام والسكون ، كما كانت هى وسط
الأنوار السواطع والحركة الدائبة .. هى تلك
الصموت الأبيّة تنتظر فى صبر وأناة ساعة
الخلاص ، ساعة الأبوة إلى الوطن » :

ولا ينسى « تيمور » - فى وسط ذلك
كله - أن يرتب لك لقاء مع روح المقاومة
الفرنسية فى أيام الاحتلال الألمانى على لسان
نادل القهوة . وتسنيح للكاتب فرصة السخرية
المنتقمة من حوذى محطم أرهقهم عسرا فى
مساوماته على أجيرة الركوب فى مركبته التى
لا بد أنه ابتاعها من سوق الأسقاط وباليات
السلع !

ويتهيا الركب لعبور المحيط الأطلنطى أو كما
يسميه العرب « بحر الظلمات » ، ويستعدون
لرحلة لا تستغرق أقل من إحدى عشرة ساعة ،
ويتسامى بالمسافرين صديقهم الكبير يضرب

بهم فى عرض الأفق ، وقد اتقد حمية
وحماسة ، ويرون السحب تنبسط على
صفحتى المحيط وتغدو كأنها بساط من
جليد :

وتبلغ الرحلة « نيويورك » ، وتثور بالكاتب -
كما يقول - ثورة تطلع وفضول ، فكان يبعثر
النظرات حوله فى تعجل ، يخشى أن يفلت منه
شئ ، حتى تطالعه ناطحات السحاب بقوامها
الفارع تستعلى ، ولا تنى تستعلى ، فهى
تفصح لك عن مركب النقص فى النفس
الأمريكية تكمن فيها نزعة تلك الأمة الفتية
الناهضة التى أصابت ثروة واقتدارا ومكانة ،
نزعة كأنها تريد أن تصرخ قائلة :
لست إلا أمة عظيمة !

وتجد عبقرية الكاتب المصورة - فى
أمريكا - مجالها الواسع فى التسجيل والوصف
والمقارنات بين الشرق والغرب ،
والحديث عن الرجل والمرأة ، وما يسميه
الأمريكيون جمال الجاذبية الأنثوية ، والفرق
بينه وبين الجمال المصرى النسوى ، الذى
أنضجته شمس الصحراء ، وغذته خصوبة
الوادي ، ورواه رحيق النيل ، وشاعت
فى سماته أحلام الشرق وأخيلته فأصبح
« كوكبيل » الجمال الشرقى ، وغدا سحرا
لا يفوق مستواه أى مستوى آخر للجمال
العالمى :

وتأخذ معالم « نيويورك » ثم « واشنطن »
بعدها أماكنها فى كتاب الرحلة بفنادقها

ومسارحها ودور السينما فيها ، والمتاحف القديمة والحديثة ودور الكتب ، وتسبح الفرص بين حين وآخر لاهتزازة قومية تثير في نفس الكاتب الزهو والاعتزاز بوطنه ومجده القديم وحضارته أم الحضارات ، ويستيقظ بين جوانحه اغتباط حين يزور ركناً مصرياً في أحد المتاحف ، أو يطالع في إحدى دور الكتب على مخطوطات وكتب من نفائس التراث العربي الإسلامي .

ويتم علاج الشخص العزيز ويأخذ المسافران طريق الأوبة ، ومنذ أن فصلت الطائرة عن «أثينا» متجهة نحو مصر ظل صاحبنا لا يستثنى إلا جوا واحدا ونسيا واحدا ، ما أطيب شذاه ، وما أكرم رياه ، ينفذ إلى سويداء القلب ، ذلك هو نسيم «مصر» ، وعطر الوطن ، ثم لا يلبث أن يستمع إلى صوت منبعث من قرارة وجدانه يتساءل :

« مالي ، وقد رحلنا عن «أثينا» واقتحمنا سماء بحر الروم ، واتجهنا صوب وادي النيل أحسن وحشة غريبة تهب دفعة واحدة من جوف ذلك الغسق الذي نشق أستاره ، ويهيب بقلبه : أفصح أيها القلب . مما بك الساعة ! » .

ويصل الغائب الوطن ويقف على قبر ولده ويطوف بمزاره ، ثم يرجع إلى داره ليخط إليه كلمات عجيلا ، هي أخرى كلماته إليه في هذه الرسائل .

وينتهي كتاب الرحلة برسالة من صفحتين إلى شريكة عمره ، ورفيقته في السفر والحضر ، تحية محبة ورمز تقدير .

هذه الرحلة تحولت في يد تيمور إلى شبه قصة تحقق في نفس قارئها المتعة الفنية ، واللذة العقلية معاً ، وتثير عنده في الوقت ذاته مشاعر الأسى والمشاركة الوجدانية .

والخبر الذي يمسك قصة الرحلة ويربط بناءها ، هو ذلك الغائب بحسبه ، الحاضر بروحه ، الذي لازم أبويه طوالها يتحدث إليهما ويتحدثان إليه ، ويشاركهما الذكريات والمشاعر التي أملت رسائلها . وهي كسائر أعمال «تيمور» نموذج في الوضوح الفكري والتعبيري ، وفي غنى الثروة اللغوية التي تهجزها الاستجابة لتصوير الأشياء والأشخاص والمشاعر والمشاهد في تنوعها ، بين شرقية وغربية ، وقديمة وحديثة :

* * *

ولتيمور فيما أخرج من سلسلة أدب الأسفار نموذج آخر ، أحدث من سابقه عنوانه : « جزيرة الحبيب ومشاهد أخرى - سياحة في إيطاليا » ، ظهرت طبعته الأولى سنة ١٩٦٣ أي قبل رحيله عن دنيانا بعشر سنوات يبدوه بنبرة طريفة فاتحة لشهية القارئ عن بعض الفوارق الأساسية بين الحياة في سويسرا والحياة في إيطاليا ، يقول فيها :

« فالحياة في سويسرا كأنها لحن قوى عنيف من الألحان الموسيقية الجسام التي تتطلب الإنصات في توقر وخشوع ؛ ولكن الحياة في إيطاليا ترنمة رقيقة مرحة ، تترنح على نغماتها الأسماع في كل آن وفي كل مكان .

وإن تلك الفوارق لتبدو حتى في ألوان
الطعام . . . الصحن في سويسرا كأنما يقول
لك : ماذا تبغى أكثر من غذاء نافع يوفر
لك الشبع والعافية ؟

أما نظيره الإيطالي فيقول لك : هنيئاً
مريئاً بما تنعم به من لون شهى المذاق يواتيك
باللذة والإمتاع !

وعلى رأس المجالات التي تتجلى فيها هذه
الفوارق مجالُ الجمال . . هو في سويسرا - جمال
هندسى منطقي ، يقوم على التنسيق ، فيخاطب
العقل ، ويبعث على التقدير والإكبار ، وهو -
في إيطاليا - جمال ثوري عاطفي ، يوقظ
الفتنة ، فيناجي القلب ، ويبعث في الجوانح
حرارة الشوق والهيام :

و«جزيرة الجيب» التي استمد منها الكتاب
عنوانه هي جزيرة «كابري» ، تلك الجزيرة
الصغيرة في خليج «نابولي» والتي خلدت
جمالها كثير من الأغاني الغربية العاطفية
الراقصة ، وقد تعهدوا القوم ، فأحاولوا حفظها
الوافر من جمال الطبيعة سحراً وفتنة . وهذه
الملاحظة تشير في نفس كاتبنا سؤالا ملحاً .
إن مواطن من الفتنة والسحر تختبئ في أرجاء
الإقليم المصري ، فتي يتاح لها أن تدخل معهد
التجميل لتخرج عرائس في زينة وزخرف
تغلي لها المهور من كل خاطب ود ؟

وانشغال الكاتب بوطنه ، وحنينه إليه ،
واعترازه بعراقة تاريخه وحضارته سمة بارزة

من سمات هذا العمل الأدبي ، فالكاتب أينما
سار ، تراءى له من جانب الوطن أطياف ،
تهز منه كوا من المشاعر ، وتشير فيه غوالي
الذكريات فيهتف من أعماقه : «رعاك الله
أيها الوطن العزيز ، ما خطونا في ديار الغرب
خطوة ، إلا آتستنا منك آثار تذكرنا بك ،
وتشدنا إليك ، وتزيدنا من ولاء لك وتمجيد ،
فأنت على البعد والقرب ملء وجداننا ، مادبت
فيها حياة » .

ويزور الكاتب حديقة روما ، وفيها مئات
من التماثيل يتجمع بعضها في بقعة ، ويتفرق
بعضها في شتى الأرجاء ، ولكل فئة من العظماء
نصيب ملحوظ بين هذا الحشد من التماثيل ،
فيهرسأحننا بما يرى من روعة وجو روحاني ،
ولكنه لا يلبث أن تغشاه سحابة من الكآبة ،
إذ لا يجد عربياً من قومه أتيح له أن يتبوأ مقعداً
بين أولئك الأفاضل الخالدين ، ولكن هذه
السحابة تنقشع عنه حين يعلم أن «شوقي»
شاعر العروبة والإسلام ، قد أخذ مكانه
الجدير به بين الأنداد والنظراء من الشعراء ،
فيقول : إنه في الحق لانتصار للشرق بأسره
قمين بالزهو والاعتزاز .

ومن سمات فن تيسور في «جزيرة الجيب»
بل في أدبه جملة - كثرة التشخيص للأشياء
المادية ، ومخاطبتها ، وإدارة حوار معها ،
كأنها أناسي تسمع وتعقل وتستجيب للهمس
والمناجاة . وينجح تيسور في هذا الكتاب
النجاح كله - يسعفه في هذا حس مرهف ، وقلم

ملهم ، وثقافة فنية عميقة واسعة ، فينقل إليك
في أعذب صورة من صور البيان ذلك الجو
الحافل بالآثار ، ومواطن الجمال ومشاهد
الذكريات ، حتى لكأنك معه تشاهد وتستمتع
وتتأمل ، وتنقل بين جلال الماضي وجمال
الحاضر : ويرتفع نفس الكاتب في بعض
مواطن الجمال الطبيعي ، إلى أسلوب تحار
في تحديده : أهو نثر شاعري ، أم شعر
في قالب منثور ؟!

سادتي :

تحفل العشرون سنة الأخيرة من حياة
تيمور ، بأعمال أدبية متنوعة ، تبدو عليها
سمات العبقرية الفنية الناضجة والأستاذية
النقدية الهادية ، والخبرة اللغوية والأدبية
الراشدة ، والتحليل النفسي العميق ، والتصوير
الكاشف لبعض مشكلات المجتمع المعاصر :

ومن هذه الأعمال روايته القصصية « إلى
اللقاء أيها الحب » يعرض فيها مشكلات فتاة
العصر الجديد ، فيما تعاني من اضطراب في
حياتها العاطفية ، وفيما تتعرض له في حياتها
العامة ، وعملها في مختلف الأوساط ، من شبه
ومغريات ، وألوان من الصراع النفسي . تسير
نشأة الفتاة في أسرتها في جو متناقض يتنازعه
صوتان : صوت التطور ومسيرة العصر في
شخص عمتها « تفيدة » المثقفة الذكية ، التي
تعطف على الفتاة وتنفهم مشكلاتها ، والتي
كانت لقاءات الفتاة معها متعة أي متعة ، حيث
تقضيان الوقت في مفاكهة ومطالعة وحوار ،

فإذا صممتا كان صمتهما لصغاء إلى أقراص
الحاكي ، تطرب السمع بأنغام الموسيقى وألحان
الغناء :

والصوت الآخر صوت التقاليد ، ممثلاً في
شخص أمها القليلة الحظ من الثقافة والذكاء ،
والتي تريد لابنتها أن تسلك مسلكها هي في
الحياة : وتصر على أن تستبقى لنفسها حياة
السراة المترفين ، على الرغم مما وصلت إليه
الأسرة من ضيق وإفلاس :

تنقلت الحياة بالفتاة في ميادين عمل مختلفة :
مرة أمينة سر لرئيس مكتب شركة تأمين ،
ومرة محررة في القسم الإفرنجي لجريدة « الليالي
الملاح » ومنشئة لركن ناجح فيها عنوانه
« أحاديث بنت البلد » ، وقد لاقت في مختلف
أعمالها ضروباً من سلوك الرجال نحوها ،
وأطاعهم فيها ، ومرت عليها في مختلف
الأوساط نماذج وأشكال من الشباب في
علاقاتهم ، ومناحي تفكيرهم ، ومواقفهم من
الحياة ، وأورثتها تجاربها المرة ، شعوراً بالنقمة
من هؤلاء المتوقحين الذين يحبون المرأة لقمة
سائغة تسد جوعهم الأثيم . ويمسك هيكمل
القصة علاقة من الحب بدأت تعارفا وودادا
ثم نمت مع الزمن ومن خلال الأحداث حبا
فرابطة زواج :

وتبدو براعة الكاتب الكبير في هذه الرواية
وفي أخواتها في تجسيد المعاني والمشاعر ،
وفي تسيير الأحداث في حركة طبيعية ، وفي
إدارة الحوار المستمر بين الأفكار وأضدادها ،

وفي إتاحة الفرص للمنافسات والأزمات العاطفية في تعقدها وانفراجها، ويحس القارئ في بعض فصول هذه الرواية صدى لبعض اهتمامات الكاتب في فنه القصصي، كالنصح الذي يوجهه « سعد مبولي » لصديقه المحررة بأن تفتح ميدان البيئة الشعبية، وتزور الأحياء الوطنية، وتجوس خلال الأسواق وتتعرف إلى أهل البلد، وتختلط ببنات البلد، لتدرس كيف يحين، وما مشكلاتهن، إن ذلك ميدان فسيح لو طرقته لتفتحت لها دنيا جديدة زاخرة، ولسكان ذلك ينبوع إلهام لفن صادق ينبض بالحياة. ويفسح تيمور في هذه الرواية مكانا للمحاث وإشاعات ذكية، منها طرفة في شكل مقطوعة من الشعر الحديث، يضعها على لسان فتاة شاعرة، في عامها الرابع عشر تسمى نفسها «شاعرة المذهب الوجودي وما فوق الواقعي»، ويهيء لها أن تلقى في حفل في « كازين الصقر الذهبي »، أقيم لانتخاب ملكة عارضات الأزياء، ويصفق الجميع المحيطون بالفتاة، ويرتفع التهامس بينهم يتواصفون نضارة الفتاة، وما تمتاز به من رشاقة الحركة، وخفة الروح، ولكنهم مروا بقصيدتها مرور الكرام، فلم يذكروها بخير أو بشر.

ومن إيجاءاته الكاريكاتورية صورة يرسمها على لسان بطلة الرواية، لموقف مدير تحرير الجريدة، وهي عنده تعرض عليه بعض الأوراق، وكان يتودد إليها ويلوح لها برغبته في الزواج منها؛ تدخل عليهما فتاة أمريكية

فاتنة الملامح غالية في زينتها وزخرفتها. كأنها دمية من دمي المسارح تقدم نفسها باسم « مس ميلودي » مبعوثة بجمعية الصحافة الأمريكية الحرة لدراسة مشكلات الشرق الأوسط! ويأنس مدير التحرير بالحديث إلى الزائرة الجذابة المرحية، وترتفع الكلفة، ويظل يتفرس فيها، فيتخرج وجهه، وتجمحظ عيناه من محجريها جمحوظاً عجيباً لم تعهده أمينة السر من قبل، حتى خشيت عليها أن يعرفها انفجار، وتهض مستأذنة في الانصراف لتخلي الجو لصاحب الجريدة ومبعوثة الصحافة الأمريكية بتبادلان الحديث في حرية وطمأنينة، ويتدارسان مشكلات الشرق الأوسط في جو هادئ!

ومن هذا الصنف من قصص تيمور مسرحية اجتماعية بالفصحى والعامية، عنوانها: « كذب في كذب »، وأشخاصها يمثلون نماذج من السلوك القائم على الكذب والخداع، ومن الطريف أن تيمورا يطور أحداث المسرحية، ويحرك أشخاصها في براعة فائقة، تقود البطل والبطلة في النهاية إلى مرفأ الصديق الأمين، بعد أن ظل كلاهما يتغفل صاحبه، ويحاول إنقاذ نفسه بالزواج من الآخر. وتلك ظاهرة جديرة بالنظر في موقف « تيمور » في قصصه من الضعف الإنساني.

ومن بين آثار فقيدنا في خلال تلك السنوات العشرين الأخيرة مجموعات من الأقاصيص منها « ناثرون » (كتاب الهلال ١٩٥٥ عدد ٤٦)

و «ودنيا جديدة» (١٩٥٧) ، « وانتصار الحياة وقصص أخرى » (١٩٦٣) و « أنا القاتل وقصص أخرى » (١٩٦٩) و « أبوعوف وقصص أخرى » (١٩٦٩) . وكل قصة في هذه المجموعات بمثابة ، وبمشكلة معينة تعرضها ، أو خيال تجسده ، أو عقدة باطنة تبرزها إلى عالم الوعي والشعور .

ويقدم المؤلف لمجموعة «ثائرون» بمقدمة يشير فيها إلى مدار بين طائفة من الكتاب من مساجلات حول الأدب . وهل هو تعبير عن النفس في محيطها الخاص ، أو هو تعبير عن الحياة في محيطها العام؟ وفي رأيه أن الأدب في ظاهره غاية ، وفي جوهره وسيلة : هو غاية ، لأن الأديب الفنان — في أغلب حالاته — يعبر عن حياة تعالج في نفسه لا يملك إلا أن يعبر عنها في صراحة وخلوص ، وهو وسيلة إذا رمى فيه الكاتب — واعيا أو غير واع — إلى إصابة أهداف معينة ، كالتمسك بالحياة الإنسانية إلى آفاق أعمّ خيراً وأكرم مثلاً ، وكالعمل لخدمة قضية من قضايا المجتمع ، أو لعلاج مشكلة من مشكلاته . ويشير المؤلف إلى أن القصة الأولى من مجموعة «ثائرون» (منها أخذت المجموعة عنوانها) «تصور عصر» من أخطر عصور تاريخنا الحديث ، عصر ما قبل الثورة ، وهي تدور حول فئة من الشباب الحائر ، يحيمون في عهد فساد وانحلال ، وبين جنوبهم روح الثورة ، حتى يتلقوا ذلك الضوء الواج ، يهدي لإقامة صرح الوطن الجديد .

ومن القصص الممتعة في المجموعات التي أشرنا إليها : قصة «المستعين بالله الكاتب هاردي» وقصة «انتصار الحياة» وقصة «الوطواط» ، و «حكاية أبوعوف» .

و«لثيمور» قصة ذات جو روحى نشرت منذ أربع سنوات ، عنوانها «معبود من طين» وهي تستمد إلهامها من الحياة الدينية في مصر القديمة ، وما كان للكهنة بها من سلطان ، وما تتطلبه العقائد والأديان من جهاد في سبيلها ، وما تحتاجه النفس الإنسانية من ترويض وتهذيب ، ومن ابتهاج إلى الإله الحق ، تستلهم منه طمأنينة اليقين . لتقاوم روح الشر التي تقبع جذورها في قرارة الكيان البشري .

وإذا انتقلنا من وادي القصص إلى وادي المسرحيات التاريخية ، وجدنا لثيمور طائفة منها ، تمثل اتجاهها فنيا في عرض أشخاص التاريخ عرضاً أدبياً ، يعنى بما وراء الأحداث وأنماط السلوك من عوامل نفسية وبواعث لاشعورية ، منها : «صقر قريش» (١٩٥٦) ، و«ابن جلا» ، «وطارق الأندلسي» ، التي نشرت في العام الحاضر (١٩٧٣) .

وفي كل هذه المسرحيات يتجلى نجاح تيمور في نقل القارئ إلى العصر الذي عاش فيه بطل المسرحية ، بأشخاصه وأحداثه ولغته ، وبراعته ، في إعطاء كل شخصية في المسرحية حقها من التحديد والتقويم ، حتى تتألف منها جميعاً قطعة حية صادقة ، من حياة مجتمعها الذي عاشت فيه .

وبعد فقد شغلنا في هذه الكلمة حتى الآن
بالجانب القصصى والمسرحى ، وبأدب
الرحلات في عبقرية أديبنا الكبير . ولكن
لتيصور منجزات أخرى لها شأنها ، ولها
حسابها في تقدير عظمة هذا الكاتب الرائد .

لقد شعر « تيمور » منذ أن اكتمل فنه ،
ونضجت تجاربه ، وذاعت قصصه ، في
مختلف الآفاق الأدبية ، أن عليه واجباً من
التعريف والتقديم والنقد البناء لأعمال زملائه
ومريديه من كتّاب القصة ، ومن الدرس
والبحث النظرى ، المستنير بالخبرة العملية
في فن القصص وتطوره ، وخواصه ،
وأصول نقده ، وفي الأدب ومذاهبه ، وصلته
بالحياة . كما كان عليه - وهو الجمعى اللامع -
أن يقوم لعضوية الجمع بحقها ، فيبحث
ويحاضر في فنون الأدب ، وفي اللغة
ومشكلاتها ، والكتابة العربية وإصلاحها ،
وألفاظ الحياة اليومية وتنميتها ؛ ولأعماله
في كل هذه النواحي حظها الوافر من الإجابة
ونصيبها من التقدير .

فن جهوده في هذه الميادين كتاب بعنوان :
« مناجيات للكتب والكتاب » ، بناه على
أقسام أربعة : الأول مع القصص العرب ،
من أصحاب القصص المطولة ، وأصحاب
القصص القصيرة ؛ والثانى مع القصص غير
العرب ؛ والثالث مع الشعراء ؛ والرابع مع
المؤلفين ؛ وفي هذه الأقسام نلتقى بتقديم
وتحليل واضح الفكرة والاتجاه لمجموعة
من الأعمال الأدبية لبعض كتّابنا وشعرائنا

العرب : مثل يحيى حقي ، وفتحي رضوان ،
وثرثوت أباظة ، وعبد الحليم عبد الله ، وبشارة
الخورى كما نلتقى بتعريف بترجمات عربية
لبعض أعمال كتّاب غير عرب ، مثل :
« مارك توين » « وهنريك إيسن » ،
« ومارغريت ميتشل » :

وفي بعض فصول هذا الكتاب يكشف
لنا تيمور عن موقفه من النقد ، وعن العناصر
الأساسية التى تدخل في تقديره الفنى للأعمال
القصصية ، وهو يقرر أنه لم يزاوِل النقد فيما
سلف من أيامه إلا في الندرة ، إذ كانت نفسه
تعزف عنه ، وأنه رضى زمناً بموقف المنقود
لا الناقد ؛ ولكنه عدل أخيراً عن هذا العزوف ،
ورحّب بما طلب إليه من تناول بعض الأعمال
القصصية بالحديث ، لا ناقداً بالمعنى
الدقيق - كما يقول - ولكن قارئاً يتحدث
عما قرأ حديثاً يعبر به عن إحساسه وحبّه فيما
يصنع أن يدعى لنفسه الصديق فيما يحس ،
والإخلاص فيما يقول :

وتيمور في هذا الكتاب ناقد معلّم ،
سهل التناول ، سمح التوجه ، معنى بالجوهر ،
عميق في تحليله وبخاصة حين يكون العمل
الذى يعرضه عميق الأبعاد في فكرته وفي بنائه
وفي عرضه للترجمة العربية لقصة « آدم
وحواء » ، من تأليف الكاتب الأمريكى
« مارك توين » مثل مما نقول ؛ ففى بدء
حديثه يشير أعمق الأسئلة عن ألباز الوجود ،
ويشير إلى أن أهل الفكر هم رواد البشرية

في البحث عن ذلك المجهول ، وأن قصة « آدم وحواء » ظلت الهدف المنصوب لأولئك المفكرين فيما يرتادون ، وأن أظهر جوانبها اثنان :

الأول : خلق حواء من ضلع آدم - فهذه الصورة تختزل لنا فلسفة الرجل والمرأة على وجه البسيطة منذ الأزل إلى الأبد ، والآخر خطيئة آدم وحواء :

وفي النظر إلى هذه الخطيئة يستجمع « تيمور » كل شجاعته ليقول :

ولاني لأجرؤ فأزعم أنها خطيئة ملائكية مقدسة . . . : خطيئة قدرها الله لحكمة تجمع بين السمو وبعد الغور ، وماهى إلا حجر الأساس في عمران الوجود المعداد ، والدعامة الكبرى للكيان الاجتماعي الرفيع ، وبفضل تلك الخطيئة ظفرت الدنيا من الجنة بتلك البذرة الحية التي أثبتت على وجه الأرض شجرة الإنسان . . . ثم يستمر قليلا ليزيد ذلك الرأي توضيحا .

وله في الحديث عن قصة « ذهب مع الريح » للكاتبة الأمريكية « مارجريت ميتشل » تحليل غاية في الدقة والعمق الفني :

وهناك لون آخر من إنتاج تيمور الأدبي ، قريب مما عرضنا له في كتابه « مناجيات للكتب والكتاب » ، ذلك هو كتابه : « ملامح وغضون ، صور خاطفة لشخصيات لامعة » ، ويتألف ذلك الكتاب من لقطات تصويرية بارعة ، لبعض الشخصيات الأدبية

والجمعية ، والفنية المعاصرة ؛ من بينها لطفي السيد ، وعبد العزيز فهمي ، وطه حسين ، وهيكمل ، ومنصور فهمي ، وأحمد أمين ، وإسماعيل تيمور ، وفكري أبازة ، وأنطون الحميل ، والشيخ أبو العيون ، وزكي طيلمات ، ونجيب الريحاني . . . وغيرهم .

ووجه البراعة في تلك اللقطات أو الصور الوصفية أن الكاتب الفنان ، ينوع أسلوبه فيها تنويه ماهر ، وكأنما يختار - من كل شخصية يصورها - زاوية معينة هي أبرز الزوايا فيها ، يستعين بها على تحديد الأسلوب الذي سيصطنعه في التصوير . ومن أكثر هذه الصور إمتاعا - في نظري - صور : « لطفي السيد » « وعبد العزيز فهمي » « وأحمد أمين » « والشيخ أبو العيون » ؛ ويبدو أن تيمورا - رحمه الله - كان يرضى هوايته في الوصف التصويري ، حتى ولو على حساب شقيقه الأكبر « إسماعيل » الأمين الأول في القصر ، فقد رنم صورة سريعة له استجابة لمن طلب منه ذلك ، وقدمها للقراء - كما يقول - على حقيقتها ، وهو موقن بأن الحساب عليها سيكون بسببها غير يسير ، على أنه فوّض أمره إلى الله . . . ومن بدائع تيمور في هذه اللقطات أنه يعتمد أحيانا إلى أن يجمع لك صديقين ملازمين في لقطة واحدة ، فيقول - مثلا :

[هما اثنان :

أحدهما : سامق الهامة ، باسق القامة ، عريض المنكبين ، متدفع اليدين ، تلتمع

غيناه حزما واعتزاما، ويقتلع خطاه في مسيره
اقتلاعا، وبجانبه شخص متطامن، ضئيل
الظل، قريب بعضه من بعض، تملأ منه عينيك
في لحظة، ينقل خطاه كما يتوالب القطا،
ويقلب فيما حوله نظرة يقظى، تسبر الغور،
وتخترق الحجب.

فإذا راعك مرآهما جنباً إلى جنب في الطريق،
فأقسم - غير حاث - أنك ترى العقد
والمأزنى، ترى ذينك الصاحبين، اللذين
ترافقا في دنيا الأدب وفي عالم الثقافة منذ
عهد بعيد . . .

وقد عاد كاتبنا الكبير إلى مثل هذه الصور
الوصفية الثنائية في مقالات نشرت في
الصحف في السنتين الأخيرتين: منها واحدة
بعنوان: « بين شوقي وعزيز » وأخرى
بعنوان: « بين الأديب المغامر والأديب العليل »
وأشار في هذا المقال الثانى إلى أنه أخذ - منذ
شهور - يعد أوراقه لهذه الصور الوصفية التى
يجمع في كل منها بين اثنين، اتسعت بينهما
دائرة المشابهات أو المقابلات.

وإذا أردنا استكمال الصورة المجملة التى
نحاول أن نرسمها هنا لجهود الراحل
الكريم - عرفانا بفضلها، كان علينا أن
نشير - في إيجاز يقتضيه المقام - إلى ألوان
أخرى من أعماله الدراسية من كتب
ومحاضرات وبحوث في مختلف ميادين
الأدب واللغة.

فالفقيد كتاب بعنوان « محاضرات في
القصص في أدب: العرب ماضيه وحاضره »

يضم محاضراته التى ألقاها على طلبة قسم
الدراسات الأدبية واللغوية بمعهد الدراسات
العربية العالية (١٩٥٨). وقد ذهب فيها إلى
أن للأمة العربية قصتها منذ أقدم العهود على
طرازها الخاص، وأن أدبنا القصصى
الحديث يحمل لقاحه وبذوره من قصصنا
العربى القديم، وأنه وليد الصلة بين الشرق
والغرب وأن « ألف ليلة وليلة » ليس إلا بعض
ماتزخر به كتبنا الثقافية من أقاصيص وأسمار.
وقد كانت معالجة الفقيد للموضوع - على
مستوى الدراسات العليا - معالجة تتسم بالعمق
والاستقصاء وسعة الأفق.

أما كتابه: « فن القصص - دراسات في
القصة والمسرح - » ويقع في ثلاثمائة من
الصفحات المتوسطة، فقد جمع فيه معظم ما
يهم الدارس والخاص من الثقافة الفنية،
موضوعاً في شكل مشكلات تناقش، وظواهر
تعلل، وحقائق في دنيا الفن تبسط وتوضح،
ومقاييس وأصول، أساسها الخبرة والنظر
السليم ومعايشة الأعمال الممتازة لمشاهير الكتاب.
وقد أدمج المؤلف في هذا الكتاب مادة من
فصول له نشرت سابقاً، ويتألف الكتاب من
حوالى خمسة وعشرين قسماً، يرجع معظمها
إلى موضوعين رئيسيين: الفن والقصص،
وتحتهما، تندرج حقيقة الفن وجوهره،
والفن للحياة، والفنان بين الواقع والإلهام،
وشخصية الفنان والفن بين المسرح والسينما،
ونشوء القصة وتطورها، والقصص المصرى
الحديث، والقصص الإنسانى، وعوامل

النجاح في تنشئة القاص : . وغيرها من
الموضوعات :

و«تيموز» - في عنايته بالناشيء القاص ،
وبالرغم من نفوره من التعقيد والتقنين في عالم
الفن ، يستخلص بعض القواعد والقوانين
في كتابة القصة ، ويعد منها ثمانية يشرحها
ويقدمها لا لتكون قواعد جامدة ، ولكن
لتكون معالم على الطريق تهدي وتوجه :

ويشارك فقيدينا في دراسات الأدب العربي
الحديث فينشر في سنة ١٩٧٠ كتاباً في مائتين
من الصفحات المتوسطة بعنوان: « اتجاهات
الأدب العربي في السنين المائة الأخيرة » ،
عنى فيه - إلى جانب التاريخ الموجز لأدبنا
الحديث - بالترجمة المجملية لنماذج من كتابنا
وشعرائنا ، مثل نواحي من التطور ، واتجاهات
من التفكير من بينها عائشة التيمورية ،
وشوقي ، وحافظ ، وتوفيق الحكيم ، وعزيز
إظلة ، ومحمود طاهر لاشين ، ومحمد
الساعى . وأمين الخولى ... وغيرهم :

وقد استمتع المجمع في مؤتمراته السنوية
بالاستماع والمناقشة لطائفة جادة من بحوث
تيموز ، من بينها في ميدان الأدب « بحث في
الأدب الشعبي » . و« الفنان بين الواقع والإلهام » ،
« ومذهب الأدب الهادف ومكانه من الأدب
الواقعي » .

وفي الناحية اللغوية : « لغة المجتمع » و
« لغة القصص » و« وحدة الفكر العربي »
و« مقومات العروبة » و« سلطان اللغة العربية »

و« رأى في الصراع بين العامية والفصحى » ،
و« مواليد جديدة في لغة الحياة العامة » .

و« تيموز » في بحوثه الجمعية ، وخاصة
الأدبية منها - يصدر عن ثقافة فنية وأدبية
شرقية وغربية واسعة ، وقد عدت له في
أحد تلك البحوث (الفنان بين الواقع
والإلهام) أربعة عشر اسماً من كتاب
العربية وشعرائها في قديمها وحديثها ، وقرابة
عشرين اسماً من الغرب : بين كاتب وشاعر
وموسيقى ورسام ، وكاتبة وممثلة ، وقد جلبها
كلها ليوضح بها بعض آراء ودعاوى في قضية
الواقع والإلهام ، محلاً عملاً لهذا ، مقتبساً رأياً
لذلك ، مبرزاً المفارقات والموافقات بين
حياة الفنان ومجال فنه ، مشيراً إلى أن الفنان
قرين الممثل على منصة المسرح : فنه كله
في استطاعته أن يندمج في الشخصيات التي
يتناولها ، مبيّناً أن الفنانين يختلفون شكولاً
وألواناً ، مؤكداً أن العبقرية لا تدع للفنان
حداً يقف عنده ، وأن أكذب شيء في الفن
هو التحديد ، وأنه لا حجر على العقول
والأذهان ولا قانون للميول والاتجاهات ،
وفي « صندوق الدنيا » متسع لأشتات المنازع
الحافلة بالنقائض والأضداد :

وهناك جانب هام من جهود « تيموز »
في خدمة اللغة العربية ، وفي تحقيق هدف من
الأهداف الرئيسية للمجمع هو تنمية اللغة
العربية ، وتطويرها لتفي بمطالب الحضارة
في شتى مظاهرها وذلك يمثل الحال الخامس
من المجالات الكبرى لمنجزات « تيموز » :

أَتُخَذَ « تيمور » من العمل في هذا الميدان رسالة خدّص لها شطرا كبيرا من جهده ، ووقته في المرحلة الأخيرة من حياته ، وكان يحرص على ألا يمرّ مؤتمر سنوي للمجمع دون أن يقدم له حصيلة من ألفاظ الحضارة والحياة العامة ، مما خدّصه هو ولجنة ألفاظ الحضارة - وكان مقرّرها - ومما استخلصه هو من قديم ما طالع ، أو ما وقع له حديثا فيما قرأ ، أو اقترحه ، أو أجراه فيما كتب ، أو ما رأى تخصيص مدلوله العام أو تعميم مدلوله الخاص ؛ وكان يصدر في هذا الجهد عن وجهة من النظر ، تمثل الآن الاتجاه العام للمجتمع في أمر ألفاظ الحضارة ، عمادها الشعور بضرورة تنقية لغة الحياة في المجتمعات العربية من العادي والدخيل ، والإيمان بأن لغة الحياة اليومية السليمة لا تفرض على الناس فرضا ، ولكن تؤخذ من أفواههم ، ومألوف كلامهم ، لترد إليهم ولتوضع في متناولهم مذكّاة من أهل الاختصاص أو مفعّحة إن كانت في حاجه إلى تفصيح ؛ والواقع يؤيد أن الوعي اللغوي في الجماهير العربية قد استيقظ منها ونما نموا ملحوظا ، وأن حرص الجماهير - معاملاتها وحرفها وصناعاتها على استعمال اللفظ العربي المناسب - في سهولته ووضوح دلالاته وارتياح الذوق العام إليه ، يوشك أن يكون سمة بارزة في حياتنا اللغوية الحاضرة ؛

وقد جمع « تيمور » جملة صالحة من ثمار جهوده في هذا الميدان ، مما سبق أن قدّمه للمجمع في مؤتمرات ، ونشر ذلك في سنة ١٩٦١ في مصنّف قيّم بعنوان : « معجم الحضارة » يضم نحو ألف من ألفاظ الحياة العامة ، بُوِّت وعُنق عليها واقترح لبعضها بدائل فيها مزية من إفصاح ، أو بنية سليمة ؛ سادتي :

إن فقيدنا « محمود تيمور » - كما تشهد آثاره وسيرة حياته - كان كاتباً رائداً في فن القصة ، ومجمعياً مخلصاً لرسالة المجمع ، ومواطناً معزّزاً بوطنه ، وأديباً باحثاً حفيظاً بالفصحى وآدابها ، وإنساناً سمح الوداد ، كريم الشمائل ، يألف ويؤلف ؛

وقد ظفر في حياته بالتكريم الجدير به ، أحبه الناس ، وقدرته الدولة فنحته جوائزها ، وأوسمتها ، وأحلمه المجمع منه في السويداء ، وترجمت طائفة من قصصه إلى عدد كبير من اللغات الأوروبية والآسيوية ، وعرف فيه كثير من شباب الكتاب موجهها ومعلمها ، ونشرت عن أدبه وسيرته دراسات جادة ؛

وإن من حق هذا الرائد علينا - وقد فارق دنيانا إلى جوار ربه بعد أن أدى رسالته - أن نضع أعماله موضع البحث والدرس العميق ، وأن نجلو من سيرته ومن شخصيته مثالا به يقتدى ، ومناراً به يهتدى ، والله سبحانه يرحمنا وإياه ، ويجزيه عنا خير الجزاء ؛

●●● قصيدة الدكتور ابراهيم أدهم الدمرداش :

نجم تنوى من قمة الجوزاء
 بالرغم من عيسائه وضياء
 إن النجوم إذا علت وتلاأت
 معها تكن ، فصيرهما لفناء
 لا تفرحن إذا أتاك ، بنعمة
 أو تحزنن على فوات عطاء
 إن الذين تغرهم دنياهن
 يستبدلون النصار بالرمضاء
 لا تقبلن على الحياة تظنها
 «ريسا» فليست ، كالسراب ، بماء
 رفع الأمانة بالوفاة وحملها
 عند الوليد بضحكة وبكاء
 حذاء ، هذى سوقنا ومصيرنا
 للنار أو لثوبة الشهداء
 قد تحمين المؤمنين برهبهم
 والكافرين به بدون رجاء
 عاد التراب إلى التراب كأصله
 والروح سر الله في الأحياء
 الجسم يفنى عن قريب بالبلى
 والروح تحظى بعده ببقاء
 إن الحياة مفازة تجتازها
 أرواح في حجب من الأشلاء
 هذا الرداء مطية منقادة
 للروح فرسلها بدون عناء

إن أحسنت فلنفسها قد أحسنت
 حسناتها أو ظلمها بجزاء
 حذاء ، إنك تحملين كبيرنا
 في حلبة الأدباء والنساء
 لو تعرفين مقامه وخلقه
 لنرت دراً ناصع الأضواء
 يا تاركاً دار البلاء مزوداً
 بالصالحات مشيعاً بدعاء
 من مثله قص الحديث رواية
 وفكاهة في حكمة الحكماء
 أو مثله ملك البيان وسحره
 ببلاغة عزت على الفصحاء
 كل الشرائل فيه دون تكبر
 إن التواضع شيمة العظماء
 لو عد أهل الفضل كان إمامهم
 في عفة وكرامة وإباء
 من جاء يطلب حاجة من جوده
 أعطاه ما في بيته بسخاء
 ذرية من بعضها بعض لها
 فضل على الكتاب والقراء
 من بعد «أحمد» عقيبت «بمحمد»
 وتلاه «محمود» من الأبناء
 والشعر كان نصيب «عائشة» التي
 جاءت بخير قصائد الشعراء
 «تيمور» هذا الاسم يبقى درة
 بقلائد الشعراء والأدباء

●●● كلمة شكر الأسرة للأستاذ أحمد فؤاد تيمور :

سيدى كبير الخالدين

سادتى ، أيها الخالدون

سيداتى ، آنساتى ، سادتى

أكننت له عاطفة الأبوة وفجيعتها ، فكان
من وحيه « أبو الهول يطير » وغيره من فن
وأدب وشأططته أنا على محبة وود زمالة السن
ورفقة الدرس ، وصداقة العمر .

ويقف بنى قلمى اليوم حائرا فى عجزه
وأنت ماأنت فى مجمع الخالدين . أن يمضى
بنى قدما فأحس به يتناقل على أناملى لأيلين
ولابيين .

أستشعر وأنا أخط تلك الكلمات العاجزات
القصار ، بأن من سبقوك إلى عالم الخلود فى
برزخ الأرواح العلوى ، ليهيمون وجدا
بلقائك من أب وأم وشقيقين ، وعلى رأسهم
ابنك الأعز باسطا لك ذراعيه مرحبا بك
فتذوب روحا كما فى معانقة جياشة ، فتقضى
الوقت معه تسمعه كما أسمعته وهو طفل
يرقد بين حضنك تروى له اليوم مارويت
له بالأمس من أقاصيص وحكايات ، فهدأ
نفسه وينام متشبثا بك مطمئن القلب ،
هائىء الوجدان .

وإلى آخذ بين جمع المحبين شقيقى
الحبيب الذى سبقك بالرحيل عنا منذ شهور
تقضت ، ولا أدري كيف تقضت . متلهفا
لسماع أحاديثك عن الأحياء من ابن مكلم
ولأخوة لم يحفل لفقده فى مآقيهم الدمع بعد .
وأراك تلتفت إليه ، فتحدث عليه حديثك

أحق لمثلئ - أيها الخالدون - أن يقف على
منبر مجيئكم الموقر ، منبر المدافعين عن الفصحى
وحمايتها ، يسمع صوته ، فيقوم بينكم متحدئا
فى بلاغة وإفصاح ، وأنتم هنا أعلام البلاغة
والإفصاح بيد أن تفضلكم بإقامة هذا الحفل
لذكرى أحدكم الذى شرفنى القدر بأن أنتمى
إلى الأرومة التى أنبته ، هذا الظرف الفاجع
هو الذى حدا بى ، على الرغم من عجمة لسانى
معولا على ما اتصفتم به من رحابة صدر أن
أتكلم شاكرا ، باسم أسرة الفقيد العزيز ،
ما أديته موه إليه ، على لسان خطباء بررة
أجلاء ، من تقدير ووفاء وإخلاص . وليس
ذلك بمستغرب على الخالدين ، وهم دون
مراء موازين التقدير والوفاء والإخلاص .
أيها الخالد بين الخالدين ، عمى الأعز :

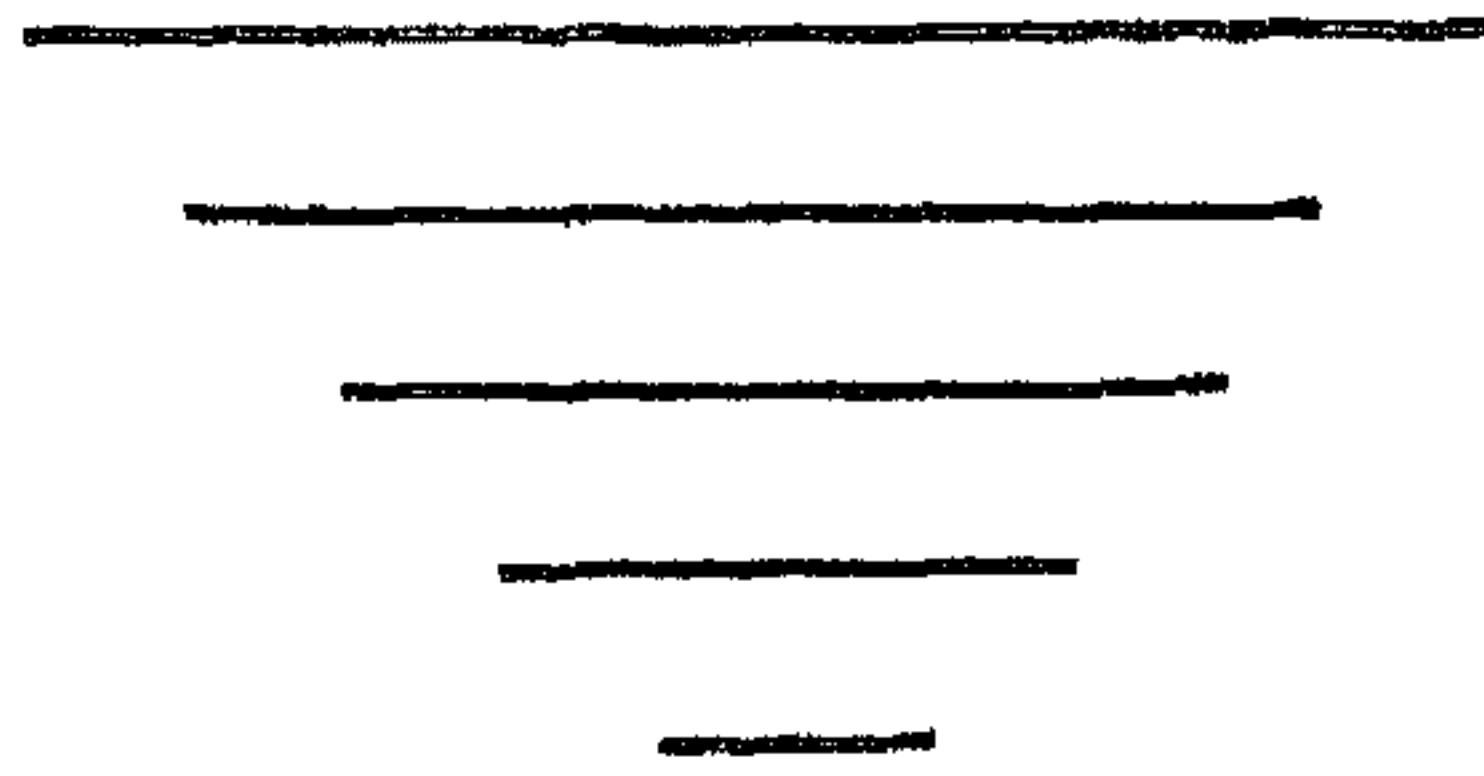
كتب القدر على قلمى منذ عشرين عاما
ونيف ، وأنا فى سن الصبا الباكر ، أن نخط
بدم لا يمداد كلمات رثاء ممجلة المدرسة تحت
صورة تزين الصفحة الأولى من صفحاتها
وقد جللها السواد ، لعزیز على كلينا ، فبكينا
معا : أنت كأب ، وأنا كابن عم وزميل
وصديق :

علينا في دنيا الأرض ، فتأخذ في روايتك
تصوغ له وللمنصتين لك في عالم الروح
ما احترنته لهذا الاجتماع من حديث وأقاصيص
تهدي إليهم في صياغتك الرشيدة ما أهديته إلى
الأحياء ، باقة من فنك الأنحاذ ، تعشقه
أسماع الراحلين والأحياء ، وإن طالت بنا
المسافات . . وإن ترسل علينا صوتك
الهادئ الهاتف من علياء السماء .

هنيئالك ، يوم زاملت الخالدين ، وهنيئنا

لهم ما يسود مجمعهم البوقر من ترابط في
إنحاء وصفاء ، وإن اختلفت حول الكلمة
المعروضة عليهم لإقرارها الآراء ، واحتدم
من أجلها الجدل ، واشتد عليها النقاش ،
وحمداً لكم ، أيها الخالدون ، ماتضيمرون
من تعاطف مكين ، وما تظهرون من
من تآزر وثيق ، في سبيل نصره اللغة ،
وتعريب العلم ، وتزكية الأدب .

وسلام عليكم ، ورحمة الله ، ، ،

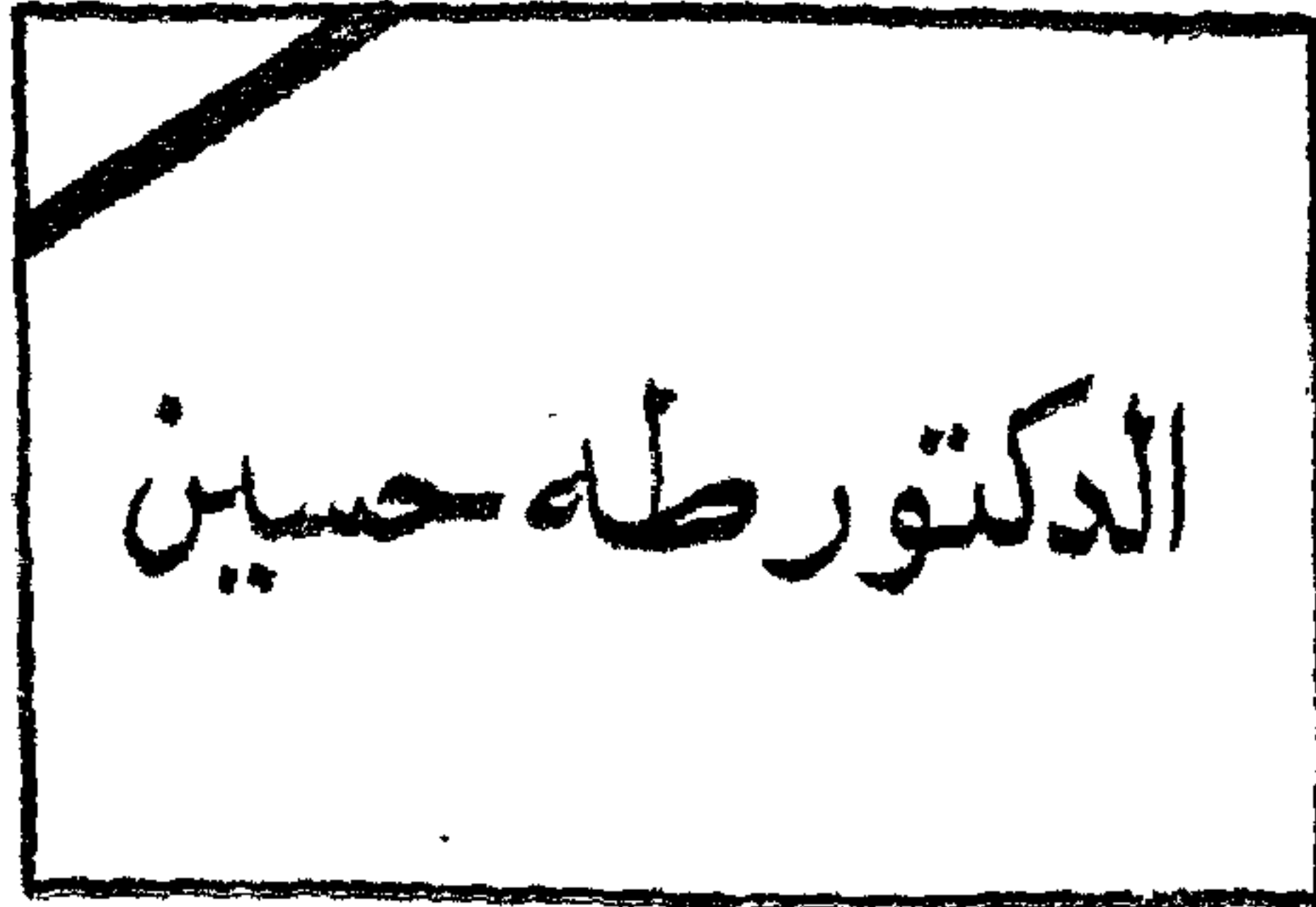


أقام المجمع حفل تأبين لرئيسه المرحوم الدكتور طه حسين ، في الساعة الخامسة من مساء الأربعاء ٢ من ذى الحجة سنة ١٣٩٣ هـ (الموافق ٢٦ من ديسمبر سنة ١٩٧٣ م)
بدار الجمعية المصرية للاقتصاد السياسي والاحصاء والتشريع ، وفيما يلي ما ألقى في الحفل :

كلمة الأستاذ زكى المهندس

نائب رئيس المجمع

في تأبين المرحوم :



هذه الحياة الخصبية العملاقة يجد نفسه في حيرة
فلا يدري ماذا يأخذ منها وماذا يدع ؟
ولا يدري عن أى جانب من جوانبها يتحدث ؟
فهل يتحدث الإنسان عن طه حسين الأديب
؟ الذى ملأ الدنيا وشغل الناس بإنتاجه
الخصب الممتع فى الأدب ، وفى النقد ، وفى
التاريخ ، وفى التربية ، وفى القصة وفى مشاكل
الناس ، وفى المعذبين فى الأرض ؟

والذى استطاع أن يطور من مناهج البحث
الأدبى ، وأن يغير من مفاهيمها وأن يضع
بين أيدينا لدراسة الأدب نهجا علميا يقوم
على البحث والدرس والنقد والتحليل ، حتى
نأخذ ونرد الفاسد ، ونصحح الخطأ ؟

هل يتحدث الإنسان عن هذا الذى عنى
بالتراث الأدبى القديم عناية فائقة ، ولكنه لم

سيدائى وسادتى :
ما أشق على الإنسان أن يتحدث عن
طه حسين ! !

إن مجال القول فيه مجال رحب فسيح
لا يستطيع أحد أن يبلغ مداه .

إن كل ما قيل عن طه حسين وكل ما كتب
عن طه حسين لا يعبر إلا عن بعض طه حسين
ذلك أن طه حسين لم يكن كأحد من الناس ،
إنه كان تاريخا لعصر ، ورمز النهضة ، إنه خلاصة
مركزة تباورت فيها كل معالم النهضة الأدبية
والفكرية الحديثة .

لهذا كانت حياته أشبه ببحر عظيم . من أى
النواحي أتيت لا تستطيع أن تدرك عمقه ، ولا تستطيع
أن تحصى ما أودعه الله فيه من خير . ولهذا
أيضا كان كل من يتصدى للحديث عن

يقف به عند تلك المسلمات القديمة التقليدية الموروثة .

ولم يقف عند منابر الخيام والأطلال،
البالية وحداقة العيس في الصحراء ، ولكنه
استمد منه ومن أدب الإغريق ومن أدب اللاتين
القدماء ومن الأدب الغربي الحديث .

استمد من هذه كلها مادة بنى بها قصورا
أدبية عربية جديدة ، بل بنى ناطحات
سحاب .

لقد كان الفقيد في عمله هذا أشبه بالنحلة
تقع على مختلف الزهور تمتص رحيقها ثم
تخرجه للناس عسلا شهياً .

هل يتحدث الإنسان عن طه حسين ، الفنان
المبدع الذي انفرد بأسلوب من الكتابة لم يسبق
إليه ولم يلحق فيه . أسلوب طبيعي يمتاز بالحرية
والانطلاق والإشراق ، أسلوب تألفه كل أذن
وترتاح إليه كل نفس . لقد كانت تأتيه الفكرة
فيتهاولها بأسلوب الفنان الأصيل ثم يعرضها ،
وفي موجات متتابعة وصور متلاحقة ينبعث
بعضها من بعض ، ويتولد آخرها من أولها ، وقد
عيب عليه في هذا شيء من التكرار ، ولكنه في الواقع
تكرار محبب إلى النفس ، يراد به تعميق الإحساس
بالفكرة التي يتحدث عنها . وأساليب طه حسين
في الكتابة لا يكاد يختلف عن أسلوبه في الحديث
فهو يتحدث إليك وكأنك تقرأ له ، وأنت
تقرأ له وكأنه يتحدث إليك .

هل يتحدث الإنسان عن طه حسين
الأستاذ والمعلم الذي تخرج على يده أجيال
متعاقبة من الكتاب والأدباء الذين نعتر اليوم بهم
وبأدبهم ؟

أذكر أن بعض الكتاب شبه طه حسين
بين تلاميذه بشجرة الزيتون تكسب التربة التي
تزرع فيها قوة الحصب والنماء ، حتى لترى كل
نبات حولها أخضر موعنا .

وكذلك كان طه حسين بين تلاميذه ، كان
يحنو عليهم ، ويتابع حياتهم في الجامعة وخارج
الجامعة ، ويجذبهم إليه بشخصيته القوية ،
وبأسلوبه الساحر الفاتن .

هل يتحدث الإنسان عن صاحب الأيام
الذي وضع بين أيدينا ترجمة ذاتية تصور لنا
كيف تطورت حياته الأدبية والفكرية
والاجتماعية ، وكيف استطاع أن يشق طريقه بين
الظلمات إلى العظمة والمجد . إن أيام طه حسين
يجب أن تكون مثلاً للشباب تلهمهم القوة
والأمل .

وبعد فهذه أيتها السيدات والسادة لمحات
خاطفة عن تلك الحياة الحرة المنتجة الحصبة
حسبي هنا أن أقول في رثاء طه حسين ما قاله
شاعرنا القديم في رثاء قيس بن عاصم :

فما كان قيس موته موت واحد
ولكنه بنيان قوم تهدموا

سيداتي ، سادتي :

لجهود طه حسين ، فإن مصر لن تنسى كذلك
جهود السيدة (سوزان) في صنع طه
حسين .

ألهمها الله الصبر ، ورحم الفقيد العظيم
وطيب ثراه ، وجعل الجنة مستقره ومأواه .
والسلام عليكم ورحمة الله .

إن تاريخ عطاء الرجال يثبت لنا أن كل
عظيم كان وراءه امرأة عظيمة ، والسيدة الحليمة
(سوزان) حرم الفقيد ، قد ضربت لهذا
مثلا آخر ، وأضافت إليه عبرة أخرى ، وإذا
كانت مصر مدينة بنهضتها الأدبية والفكرية

●●● كلمة الدكتور ابراهيم مدكور :

الأمين العام للمجمع

((طه حسين مكافحا))

سيداتي وسادتي :

للجراحة والشجاعة : « طه حسين » مكافح
مناضل ، وتلك ظاهرة ملحوظة في حياته كلها ،
كافح في صباه وشبابه ، كما كافح في كهولته
وشيوخه ، وبرغم مرضه في سنه الأخيرة
بقي قوله وفكره يحملان شارة الكفاح
والنضال . كافح وناضل في ميدان العلم والتعليم ،
في ميدان الأدب واللغة ، في ميدان الوطنية
والسياسة . وكلفه كفاحه ما كلفه من عنت
ومشقة ، وجلب عليه ما جلب من خصومة
وعداء ، ولا تخلو الكفاح أحيانا من غلو وشطط :
وكان يرى أن الرجل ليس رجلا إذا استقامت
له الحياة كلها ، فلم يكن له فيها خصم ، إنما
الرجل كل الرجل هو الذي تستقيم له حياته
كما يريد هو أن تكون وكما يريد ضميره
القوى التي أن تكون ، وكما يريد عقله
الذكي أن تكون .

كان صديقنا السيد الدكتور الزيات ،
مستشار السيد رئيس الجمهورية ، حريصاً
على أن يشترك معنا في هذا التأبين ، وكانت
له كلمة ، ولكن مهمة مفاجئة اضطرت له للسفر
إلى الخارج . وهو يبعث بصادق أسفه لحرمانه
من الاشتراك معنا ، وينقل إلينا تحية زوجة
الفقيد وابنته وولده وشكرهم الخالص
ودعواتهم للمجمع والجمعين بالتوفيق والسداد
في كل ما اضطلع الفقيد الكريم به من حرص
على اللغة وتعهدها :

* * *

هناك أناس خلقوا للكفاح ، يستعذبونه
ويستطيون كل شيء في سبيله . يرون فيه أداء
للواجب وإرضاء للضمير ، وسبيلا ناجحا
للمفوض والإصلاح ، ويضربون فيه مثلا

ويطول بنا الحديث إن وقفنا عند جوانب كفاحه المختلفة ، ويكفى أن نعرض نماذج منها . كافيح في صباه بعد أن فقد بصره ، وكأنما شاء أن يعوض . احرمته الطبيعة منه ، فحفظ القرآن كله ولما يبلغ العاشرة . واستمر يكافح ليتزود عاميا وثقافيا بأكمل زاد ، ويتسلح بأجود الأسلحة ، فالتحق بالأزهر وهو في حدود الثالثة عشرة من عمره وتعلم على كبار الشيوخ حين ذاك ، أمثال الشيخ بنيت ، ومحمد العدوي ، ومصطفى المراغي ، وسيد المرصفي ، ولم يفته أن يستمع إلى آخر درسين ألقاهما الأستاذ الإمام في الرواق العباسي . وكان يتابع دروسه صباحا ومساء ، لا يكل عملا ولا يدخر وسعا ، وقد عرف بين شيوخه بالجد والتحصيل ، وقوة الحجّة والخلق في الحوار والجدل ، وانتهى به جدله أن طرده شيخ الأزهر مع زميلين له ، ولم يعد إلى درسه إلا بعد أن شفع له لطفى السيد الذي رحب به في « الجريدة » وشجعه ، وأخذ على عاتقه رعايته وتوجيهه .

وما أن فتحت الجامعة المصرية القديمة حتى طرق بابها ، وتابع دروس كبار أساتذتها ، فاستمع لأحمد زكي (باشا) ، وأحمد كمال (باشا) ، وإسماعيل رأفت (بك) ، ومحمد الخضري ، ومحمد المهدي بين المصريين ، ولخويدي وليمان ، وسانتلانا من الأوربيين : ولم ينقطع مع هذا عن الدروس الأزهرية ، وكان يستصحب أحيانا أستاذه وصديقه « سانتلانا » إلى درس الشيخ سايم البشري في التفسير ،

ودفعه ولوعه بالجدل إلى أن يناقش بحضور الضيف الأجنبي الشيخ البشري في مشكلة الجبر والاختيار ، وكان له أيضا حوار وجدل مع بعض أساتذته في الجامعة ، وأثار غضب الشيخ محمد المهدي الذي رفع أمره إلى مجلس الجامعة ، وطالب بفصله . ودفعته دراسته الجامعية إلى تعلم اللغة الفرنسية ، ولقي فيها عنتا كبيرا ، ولكنه لم يجودها إلا أثناء مقامه في فرنسا . وختم مطافه في هذه الجامعة بتقديم رسالة « في ذكرى أبي العلاء » للحصول على الدكتوراه ، ونالها بتقدير « جيد جدا » ، وكان يمكن أن يحصل على تقدير « فائق » لولا حفيظة الشيخ المهدي الذي لم ينس حملات تلميذه السابقة . وما إن نشرت هذه الرسالة حتى أثارت ضجة ، واتهم صاحبها بالإلحاد والزندقة ، ووُجّه سؤال إلى الجمعية التشريعية يطالب بحرماته من حقوقه الجامعية ولو لم يتدخل سعد زغلول : وكان رئيس الجمعية التشريعية حين ذاك ، لقضى على مستقبل الشاب النابه الجريء .

ولم يقف طه حسين عندهذه الغاية ، بل تابع الكفاح ، وواصل الدرس والبحث . فأوفدته جامعته إلى فرنسا في أواخر عام ١٩١٤ تحت نيران الحرب العالمية الأولى ، وقضى في مونبلييه نحو عام ، ثم اضطر للعودة إلى القاهرة بسبب ضائقة مالية ألمت بالجامعة الموفدة . ولكنه لم يلبث أن عاد إلى فرنسا بعد شهرين ، واستأنف درسه هذه المرة في باريس نفسها ، واتصل بكبار أساتذة

« السربون » في الاجتماع والتاريخ ، أمثال « دوركايم » ، « ليفي بريل » « وسينيوبوس » . وأولع بالحضارة اليونانية والرومانية ، وبدأ في دراسة اللغتين اليونانية واللاتينية ، وتمكن من الأخيرة بوجه خاص ، واستطاع أن يدرك في يسر نصوصها ويستخرج منها مدلولاتها . وتزود بزاد وفير من الأدب الفرنسي . وفي عامين اثنين حصل على الليسانس في الآداب ، وبعد ذلك بنحو عام أو يزيد تقدم برسالة في « ابن خلدون » للحصول على الدكتوراه من جامعة باريس : فتوافر له بذلك درجتان في الدكتوراه ، إحداهما من القاهرة ، والأخرى من باريس ، ولم يبق إلا أن يعود إلى وطنه ليؤدى رسالته :

وقد عاد إلى مصر في أواخر عام ١٩١٩ وسنه ثلاثون سنة ، بعد أن اكتمل نضجه العلمي والفكري ، وبدأ نضالا طويلا واسع المدى ، متعدد الألوان ، عمّر نحو أربعين سنة ، وعوّل فيه بخاصة على سحر الكلمة ، وسلطان العقل ، وبداية المنطق . كافح داخل الدرس وخارجه ، فلم يستهن بدرس ألقاه ، بل كان يخفل له ما وسعه ، ويعده أكمل إعداد ، ولا أظنه ألقى درسا يوما دون إعداد . ولم يتهاون مع واحد من تلاميذه ، أخذهم جميعا بالجد ، وخاسبهم على أعمالهم في غير هواة وتخرج منهم على يديه جيل اعتمدت عليه حياتنا الجامعية والثقافية . وكان لمحاضراته العامة جمهور كبير يرقبها ، ويقبل عليها في حماس . أخذ مستمعوه بأسلوبه ،

وفتنوا بنعمة صوته ، وحاكوه في كثير من التعبيرات ، وكان لهذه المحاضرات صدى كبير لدى الخاصة والعامة . وفي عام ١٩٢٦ أخرج كتاب « الشعر الجاهلي » الذي لم يكن شيئا آخر سوى سلسلة من المحاضرات ألقاها بكلية الآداب ، وما أن ظهر هذا الكتاب ، حتى أثار حملة شعواء اختلطت فيها الأدب بالسياسة ، فعارضه من عارضه على أعمدة الصحف ، ووضعت عدة كتب للرد عليه ومناقضته . وقدم استجواب إلى مجلس النواب يرمى إلى محاكمة مؤلفه وطرده من الجامعة ، ولولا معارضة « عدلى يكن » رئيس الوزراء ، وهومن نعرف في شخصه ومنزله ، لكان لهذا الاستجواب شأن آخر . ولم تكد تسكن العاصفة في البرلمان حتى هبت في النيابة العامة ، فحقق مع المؤلف وبحث أقواله وآراؤه ، ولا يبدو أنه وجد فيها ما يدينه ، واكتفى بمنع تداول كتابه في الأسواق . وبرهن طه حسين في ذلك كله على صلابته ورباطة جأش بالغيث ، ونخاض معارك في جبهات ولم يمسه منها سوء يذكر ، بيد أنه لم تكد تمر هذه الأزمة حتى تلتها أزمة أخرى في الجامعة كانت أشد عنفاً :

فعرض في تعيينه عميدا لكلية الآداب وأجل إلى حين ، ويوم أن عين استمسك باستقلال الجامعة ودافع عنه بكل قواه ، ولكن دكتاتورية « إسماعيل صدقي » لم ترد

في أن تعدو على هذا الاستقلال ، فأبعدته
عن عمله ، وأحاطته على المعاش :

وكافح طه حسين أيضاً في ميدان الصحافة ،
وصلته بها قدمة العهد ، ترجع إلى أوائل هذا
القرن ، نشأت فيها على أيدي رائدين عظيمين
هما : عبد العزيز جادویش واطفي السيد ،
فجمع بين التطرف والاعتدال ، ولعله كان
إلى التطرف أميل . وقد كتب أول ما كتب في
« مجلة الهداية » بتوجيه من « عبد العزيز
جادویش » الذي وكل إليه أمرها . وشجعه على
ما تنوق إليه نفسه من نقد جرى وجدل عنيف .
واضطرب رائده هذا إلى أن يهجر مصر على غير
انتظار ، فاجأ إلى رائده الثاني وأفاد منه كثيراً .
والحق أن الجريدة على قصر عمرها كانت
مدرسة كبرى تخرج فيها طائفة من أعلام
الفكر والقلم ، وكان لها أثر عظيم في حياتنا
السياسية والاجتماعية والأدبية والثقافية . ونعتقد
أنه لم يكشف بعد تماماً عن أثرها في اللغة
وأسلوب الكتابة المعاصر ، فقد أتمت مبادئه
« رفاة الطهطاوي » و « محمد عبده » من
التخلص من السجع والجناس والمحسنات
اللفظية ، وتخرج فيها طه ، وهيكل ، وعزمي ،
ومنصور فهمي ، والزيات ، الذين كانوا
قدوة في الأداء الفني السائق السهل . وقد أخذ
على طه حسين شيء من التكرار وبالغ في
ذلك خصوصاً ومنافسوه ، ولو كان في وسعه
أن يكتب لتفادى منه الكثير ، على أن هذه
هنة هينة إلى جانب سلاسة أسلوبه وعذوبته ،
ولعله تأثر في هذه السلاسة بشيء من الأدب

الفرنسي ، ولكن أسلوبه من أصفى الأساليب
العربية المعاصرة ، ولا يحمل أي طابع أجنبي ،
وهو أقرب ما يكون إلى أسلوب كبار كتاب
الصدر الأول ، أمثال « عبد الحميد » ، و « ابن
المقفع » ، و « الجاحظ » .

وبعد أن رجع فقيرنا من أوروبا عاد إلى
شوقه القديم ، واتصل بصحيفة « السياسة » ،
وهي إلى حد ما امتداد « للجريدة » وأسرتهما
واحدة تقريبا ، وفيها التقى « طه » بزميله
القديم « هيكل » ، واشترك معه في إدارة
الصحيفة ، وناب عنه أحيانا في رئاسة
تحريرها . وكان له في « السياسة الأسبوعية »
مجال فسيح ، وكم كان قراؤه ينتظرون
في شغف « حديث الأربعاء » الذي فتح
أبوابا ثقافية متعددة ، وقاد حركة نقد حية
نشيطة ، وكم نود أن نحياها . وإذا كان
طه حسين ، قد كتب في « الجريدة »
و « السياسة » هاوياً ، فإنه بعد إحاطته على المعاش
أصبح محترفاً ، وطلب إليه الوفد عام ١٩٣٣
أن يرأس تحرير صحيفة « كوكب الشرق » ،
وأصبح يؤيد حزبا سياسيا طالما حاربه في
عنف . غير أن تعاونه مع « حافظ عوض » ،
صاحب امتياز هذه الصحيفة لم يدم طويلا
واضطرب أن ينفصل عنه ، وأن يشتري « صحيفة
الوادي » ، وأن يديرها لحسابه الخاص نحو
عام ، وكبدته خسائر فادحة . ثم قنع بعد هذا
بمواصلة الكتابة للصحف هاوياً مرة أخرى
في بحوث ودراسات أدبية ، وربما كانت له
علاقات منتظمة ببعضها « كالجهورية »
و « الأهرام » في العشرينات الأخيرة .

وكافح طه حسين أخيراً في ميدان السياسة ، وما أقساه من ميدان ! ورحم الله الأستاذ الإمام الذى قال فيه قولته المشهورة ولا أظن أن فقيدنا كان مذهبياً متحزباً تحزب التبعية والانقياد فيما أخذ به من اتجاهات سياسية ، وإنما هى تيارات ، أو بعبارة أدق صداقات جارها يمينا تارة ، ويساراً تارة أخرى ، وما كان أشد تأثيره بهذه الصداقات ، وما كان أسرع استجابته لها . وقد نال من هذه التيارات مانال من صعود وهبوط ، وتقدير واستنكار ، وحظى بالغضب والرضا السامى فى لحظات متباعدة أو متلاحقة . وكان شأنه فى البداية شأن كل مواطن مستنير عاش فى جو الثورة العرابية ، وأدرك حركة « مصطفى كامل » ، فهو ينكر الاحتلال البريطانى ، ويطالب بالاستقلال :

وفى اتصال فقيدنا « بعبدة العزيز جاويش » و« لطفى السيد » ما اجتذبه نحو السياسة ، كما اجتذبه نحو الصحافة ، على أن لا نلاحظ له فى الحقيقة نشاطاً سياسياً واضحاً طوال مرحلة الدراسة والطلب ، لا فى مصر ولا فى فرنسا . ولم يبد هذا النشاط إلا يوم أن انضم إلى صحيفة « السياسة » ، واندمج مع أصدقائه الأحرار الدستوريين ، وحسب معهم . وانتهى به عمله الصحفى إلى الدخول فى مهارات حزبية ما كان أغناه عنها ، وأثارها شعواء ضد الوفد والوفديين ، ولم يعف سعد زغلول من حملته برغم ما كان له من أيداع عليه . ونسأله هل اشترك فعلاً فى التنظيم الداخلى لحزب الأحرار ؟

وهل عد من أعضائه ؟ أغلب الظن أنه كان مجرد صديق ومناضل خطير ناصر الحزب مناصرة كبيرة . ولم يختلف عن ذلك كثيراً يوم أن انضم إلى صفوف الوفديين ، وحمل رأيهم ، ودافع عن مواقفهم ، وأصبح أحد وزرائهم . وود كثير من أصدقائه أن لو عاش للأدب والثقافة وحدهما ، وقد وصل فيهما إلى القمة ، وأحرز مجداً يزيد على مجده كثير من السياسيين . وودوا بخاصة أن لو لم يغفل فى المضمار السياسى ذلك الغلو الذى أساء أحياناً إلى مقامه فى الأدب وبين الأدباء .

وفى عام ١٩٤٠ دخل طه حسين مجمع اللغة العربية فى زمرة كريمة من قادة الفكر والرأى ، نذكر من بينهم « لطفى السيد » و« عبد العزيز فهمى » ، « والشيخ المراغى » ، « وهىكل » ، « ومصطفى عبد الرازق » : دخله وقد جاوز الخمسين : وحق له أن يركن إلى شيء من الهدوء والراحة . ولكن أنى له وسجيته الكفاح والنضال : وهكذا نراه يعنى بالتنسيق والتنظيم ، ويسهم فى كثير من اللجان . ويحاول جهده أن ينهض بالعربية لتلائم حاجات العلم ومتطلبات الحضارة ، ويدخل مع زملائه فى جدل محكم وحوار ممتع . اشترك على أثر دخوله فى مكتب المجمع الذى عهد إليه بتعديل اللائحة الداخلية ، وكان همه أن يبرز فيها شخصية المجمع ، ويؤكد استقلاله ، ويوفر له وسائل العمل والإنتاج :

وكنم طالب بأن تكون له مطبعة خاصة ،
واقترح أن تضم إليه مطبعة دار الكتب بقسمها
الأدبي ولا يزال المجمع يعانى من شئون الطبع
ما يعانى إلى اليوم . وأراد «المعجم ألفاظ القرآن»
أن يقوم على أساس من المنهج التاريخي ،
وأن يسلك به ما سلك في كتب العهد القديم ،
وكان له في ذلك حوار متصل مع الشيخ
المراغي : ولا يزال نذكر ما كان بينه وبين
زميله «عباس العقاد» من محاورات كانت
تبعث في جلساتنا نشاطا وحيوية ، وإذا جئ
وطيسها تدخل فيها «لطفى السيد» فهدأت
وسكنت .

وتحمس طه حسين لتيسير النحو تحمسا
شديدا ، ورحب بالمشروع الذى بعثت به
وزارة المعارف إلى المجمع ، ورغب في أن
يوضع له كتاب يوضحه ويطبقه ، وأعلن أنه
يستعد أن يتولى بنفسه وضعه . ويوم أن
يثس المجمع من إخراج معجم «فيشر»
التاريخي ، اتجه نحو فكرة وضع معجم كبير ،
وأبى طه المكافح إلا أن يضطلع بعبد التنفيذ .
وهذه مهمة عشت معه فيها ، وزاملته في
تنفيذها . وأشهد أنه بدأ أولا في رسم منهج
هذا المعجم ، وقضى عدة سنوات يتابع إعداد
قدر من مواده ، ويراجعها في أناة وروية .
واستطاع أن يخرج منها نموذجا في نحو ٥٠٠
صفحة ، وقد دفع به المجمع إلى الباحثين
والمتخصصين ، راجيا أن يوافوه بما يعين لهم
من ملاحظات وتعليقات ، وكان هذا النموذج
أساسا سار عليه المجمع في إخراج معجمه

الكبير : تلك أمثلة من جهوده المتصلة
في مجمع الخالدين ، وقد كنا نحس جميعا أنه
بماضيه الحافل ركن ركين من أركان المجمع ،
وأن رسالته وثيقة الصلة برسالته . ولقد
كانت رحلته فيه خصبة طويلة ، بلغت ٣٣
عاما ، وهى أطول رحلة لمصرى من الخالدين .

هذا هو كفاح طه حسين ، ولا أظنى
أغلو في شيء وإن قلت إن حياته كانت
كفاحاً كلها ، كفاح في الإعداد والتكوين ،
وكفاح في البذل والعطاء ، كفاح في الأزهر ،
والجامعة المصرية القديمة ، والسربون ، وتلاه
كفاح آخر دام نحو خمسين سنة ، تعددت
ألوانه وتنوعت سبله ، فشمل الصحافة
والسياسة ، والأدب واللغة ، والعلم والتعليم ،
والجامعات الجديدة ، ووزارة المعارف .
لحاً فيه أحيانا إلى قارعة أو قنبلة يلقيها فيز
المشاعر ويستلفت الأنظار ، ولا شك في أن
كتاب «الشعر الجاهلي» من أولى هذه القنابل ،
ثم جاءت مجانية التعليم الابتدائي والثانوي في
خاتمة المطاف . وقد يكون من كفاحه ما
ذهب مع الريح ، ولكن منه قدرا باقيا على
الزمن . فهو دون نزاع من الأصوات القوية
التي جهرت ، منذ أول العشرينيات الثانية
من هذا القرن ، بضرورة فك الأغلال وتحكيم
القيود الفكرية ، اعتد بحرية الرأي وتحكيم
العقل ، استنكر التسليم المطلق ، ودعا إلى
البحث والتحرر ، بل إلى الشك والمعارضة ،
وأدخل المنهج النقدي في ميادين لم يكن مسلما
من قبل أن يطبق فيها . استن في الكتابة

والتعبير لونا عذبا من الأداء الفني حاكاه فيه
كثير من الكتاب ، وأضحى عميد الأدب
غير منازع في العالم العربي جميعه :

رثاء القدر أن يختم حياته بكفاح مرير ،
فبلى بيلة طويلة تحملها بصبر الصابرين وجلد
المجاهدين :

سيداتي ، سادتي :

ليس على طول الحياة ندم
ومن وراء المرء ما يعلم
يموت والد ويخلف مـ
لود وكل ذى أب ييتم
تغمد الله فقيدنا برحمته ، وجزاه عما قدم
لأمته ولغته خير الجزاء ما

●●● كلمة الدكتور حسنى سبج :

رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق .

بما لا عهد به للأجيال السالفة ، مازجاً مزجاً فنياً
وعلمياً وبراعة فائقة بين الثقافتين العربية
والغربية :

فطر فقيدنا على ذكاء مفرط ، وجبل
على عزيمة خارقة ، فلم تقعه إصابته بالآفة
المحتومة في أيام صباه (على حد تعبيره) لم
تقعه عن أن يبلغ ما تصبو إليه نفسه الكبيرة
وما تطمح إليه روحه الوثابة من جد وعمل ،
مستطيعاً بغيره كما عبر عن نفسه ومستبصراً
ببصيرته .

فثار ثورته على ما هو متعارف ، ولم يشأ أن
يكون مقلداً وتابعا ، فأتى بما عُدّ خروجاً عن
السنة المتبعة . ولم يعدم هذا الثائر في عالم
الأدب من بين الكثرة المعجبة به ، من قلة
انتقدت عمله وناصبته العدا ، وما كان منه

من بلاد الشام وبخاصة من دمشق ومجموعها ،
أنقل إلى هذا الجمع الكريم مشاعر الحزن
والأسى لوفاة عميد الأدب العربي في هذا
العصر المرنحوم الدكتور طه حسين . وبفقدته
خسر العالم أديبا كبيرا وعبقريا فذاً هيماته
أن يخلفه الدهر . ظل نصف قرن ونيفاً ملء
العيون ومطعم الأنظار . شغل العالم العربي
بأمره ، بما طلع عليه به من آراء من بنات
أفكاره وبما ابتدعه من أسلوب في الإنشاء
يكاد يكون نسيج وحده فهو الأسلوب
الساحر ، سحر به الأبواب ، وحجب إلى
جمهرة الناس قراءة ما كان يصدره وينشره ،
وما كان يمليه ويحاضر به تلاميذه في صفوف
التدريس ، ولقد أتى بالجديد من الدراسات
في الأدب غير مكتف بالقديم المتوارث ،
وبما يلائم روح العصر من آراء في النقد الأدبي

إلا تلقى كل ذلك بصدر رحب غير مبال بما قيل ، ومتابعا السير .

ولعل المرحوم الأستاذ « محمد كرد على » الصحافي السوري القديم ، ومؤرخ الشام ، ومؤسس المجمع العلمي العربي بدمشق ، ومن أسهموا في تأسيس مجمع فؤاد الأول في القاهرة ، لعله من أوائل الذين قدروا الفتي العالم وشجعوا من كان يعرف بالشيخ طه حسين آنذاك ، ففتح له صدر مجلته « المقتبس » والتي أصدر المجلد الأول منها في القاهرة ، ثم نقلها إلى دمشق ، نشر له مقالا في مجلته سنة ١٩٠٦ بعنوان : هل تسترد اللغة العربية مجدها ؟ عتد فيه بعض الأسباب التي أدت إلى جمود اللغة العربية وتقصيرها عن مسايرة ركب الحضارة ، راسماً منهجاً عملياً للنهوض بها . ولولق ذلك المنهج القويم آذانا صاغية آنشد (وقد مضى عليه ستون سنة ونيف) لكائنات لغتنا العلمية في يومنا هذا غير ماهي عليه .

ولما أصدر المجمع العلمي العربي بدمشق مجلته سنة ١٩٢١ تابع المرحوم الأستاذ « كرد على » ما ينشره الدكتور طه حسين مقرظاً ومعلقاً ، مع شدة إعجابه بكل ما ينشره إن في الكتب المطبوعة أو في المحلات والصحف .

ويطول بي المقام في سرد كل ما كتبه في هذا الشأن فأجتزئ ببعضه :

قال عنه مرة سنة ١٩٢٤ : من أكبر كتاب العرب المتخصصين في عامة فنون الأدب ،

وقد اشتهر بالأخص بطريقة في النقد الأدبي مع ولوعه باقتباس مقدمات المدنية الغربية على اختلاف ظواهرها وأساليبها : وكتب بعد سنة : إن كل من شارك في الأدب يعرف منزلته (أي الدكتور طه حسين) من النبوغ ، وكل من قرأ له مقالة ، وتدبر آيات فضله تتوق نفسه أبدأ إلى أن يستكثر من تلاوة بنات أفكاره . أنا من المعجبين بأسلوب السيد طه حسين ومن يستحلى على الأغلب تكراره للمعنى الواحد في جمل كثيرة ، وربما كان يجري في هذا النمط من الإنشاء على غير مثال يحتذيه ، وليس له من كتاب العصر بمنحاه ضريب ونظير على ما أعلم .

يبث طه حسين فيما يكتبه في الصحف ويحاضر به طابته في الجامعة المصرية ، روجاً جديداً هدته إليه الدراسة المنظمة ، وطول التأمل في حال المدنيتين الغربية والعربية . وعقب على كتابه (في الشعر الجاهلي) سنة ١٩٢٦ فقال : معظم أمالي هذا الأستاذ النابغة من الأفكار الطريفة ، أخذ بقسط عظيم من التجدد ، فيه بحث ودرس ، وكتابه هذا سيحدث تأثيراً مهماً عند أنصار القديم في الأدب . ثم انتهى إلى القول : بحثه علمي مجرد من التقاليد ولا شك أن كتابه سيجد من مخالفيه مقاومة شديدة يربح العلم الحديث عقباها كتاباً آخر :

وقرظ الأستاذ « كرد على » كتبه (في الأدب الجاهلي) و (على هامش السيرة) و (الأيام) سنة ١٩٢٦ قائلا : لو كتب كاتب

من أهل العصر الماضي ما كتبه طه حسين في هذه الكتب ، فكتب ألوفاً من الصفحات ما أغنى غناء طه ولا أبدع إبداعه .

وآخر ما كتب الأستاذ (كرد علي) عن طه حسين : من تحصيل الحاصل الإشادة ببلاء صديقي العلامة الدكتور طه حسين في خدمة الآداب العربية وأثره المحسوس في إدخالها في طور جديد ، وبث أفكاره في جميع طبقات القراء وكان مجلياً في معظم ما خطه يمينه من بحث علمي وإبداع أدبي ، وكان عمله عدل علمه ، ظهر ظهوراً واسعاً في رئاسة الجامعة وفي وزارة المعارف . وما خلا مع هذا من حساد وأعداء ، لكنهم قلائل جداً إذا قيسوا بالمعجبين به ، والمستفيدين من نفثاته ، فهو بلا مرأى حسنة من حسنات مصر في هذا العصر ، وفضله على الأفراد والجماعة لا ينكره عليه إلا مكابر .

هذا بعض ما قاله صديقه المرحوم الأستاذ « كرد علي » . أما رجال الفكر والأدب في سورية ، فلم يكن تقديرهم له وإعجابهم به بأقل من ذلك ، فإن أنس فلا أنسى أبداً يوم لقيته أول مرة في دمشق قادماً على رأس وفد مصر لمشاركة مجمع دمشق بالاحتفال بالعيد الألفي لأبي العلاء المعري سنة ١٩٤٤ ، عندما وقف بقامته النحيلة على منصة مدرج الجامعة ليحاضر في (الفصول والغايات) لأبي العلاء المعري ، لا أنسى ذلك التصفيق الحاد الذي استقبله به جمهور مشاهديه في القاعة فحسب بل العدد الكبير من الذين لم

تتح لهم رؤيته من المستمعين الواقفين في الباحات المحيطة بمبنى المدرج حيث نصبت مكبرات الصوت ، إذ لم يتالكوا عند سماعهم صوته من متابعة التصفيق عدة دقائق .

وستظل كذلك رحلة من دمشق إلى حمص وحماة فالمزة وحلب ليزور قبر أبي العلاء في المزة ويفتح المكتبة التي أنشئت إلى جانب ضريحه ، ستظل ذكرى لا تنسى ، فلقد لقي في كل بلد من هذه البلاد السورية التي حل بها ترحاباً لا مثيل له .

ولقد كان رحمه الله شديد الحب للبلاد العربية ، ولعله كان يخص سورية ودمشق بالمزيد من الحب وكان كل مرة يأتي فيها واحداً من طلابه فيها أوزملاؤه الذين يتصلون به كان في كل مرة شديد الرغبة في التعرف إلى مآظهم من أمورها وما خفي وما جل من شأنها ودق .

ولما عقد مؤتمر مجامع اللغة العربية في دمشق سنة ١٩٥٤ ، حياً المرحوم شعب سورية في حفل الافتتاح قائلاً :

« وإني ما رأيت على طول معاشرتي للسوريين في سورية وخارجها أحداً منهم ينسى العروبة وكرامة العروبة ومستقبلها . ما رأيت كالسوريين يذكرون هذا ويفكرون فيه كما يفكرون بأنفسهم ، كان الذي أوحى إلينا التفكير في هذا المؤتمر ، رجلاً من رجال سورية ، من دمشق عاصمة العروبة العظمى الصافية التي صفت فيها العروبة من كل شائبة

وخلصت العروبة للعرب خالية من أى أجنبي ودخيل، لم يكن بدمن أن يعود الحق إلى أهله ومن أن يكون تفكيرنا متجهها إلى مكان انعقاد هذا المؤتمر وأن تكون دمشق الحبيبة أول مانفكر به . »

هذا هو فقيد العربية وكاتبها المبدع ومفكرها الكبير، أثار أدها القديم وطور أدها الحديث. طوّع أسلوبها ودأب دوماً على التزام الطرفين المتباعدين الراميين إلى ترسيخ حيويتهما : إغنائها في ذاتها من نحو ، ثم رعايتها وحياتها من نحو آخر. وأنكر واستنكر — رحمه الله — كل الاستنكار ترويج اللهجات والعامية وتشجيعها واستعمالها، لأن في الدعوة إلى العامية فاك أواصر الصلة بين أفكار العروبة ، بل والعالم الإسلامى أيضا .

وحرى بنا نحن أولاء ، وقد اجتمعنا لتأبين الفقيد ، أن نسعى إلى تخليد حياته المليئة بالجد والكد وبالعمل المثمر ، بكتاب يروى للأجيال القادمة قصة هذا النابغة الفذ ، شحذاً للهمم ، إذ مع أنه حرم من نعمة البصر وهو طفل، لم يقعه ذلك عن تحقيق ما تتوق إليه نفسه من طموح ، وما يريده للعربية من خير : إني آمل أن نسارع إلى إعداد هذا الكتاب ونشره ، ثم إلى طبعه في طبعات شعبية مبسطة ، لتأسى خطاه والنسج على منواله .

وبعد، فما كان للجسم النحيل الذى حمل تلك النفس الكبيرة الحادة آناء الليل وأطراف النهار ، ما كان لجسمه إلا أن ينوء دون تحمل

مأحمله. فتأثرت صحة أستاذنا لتسوء يوماً بعد يوم، ومع هذا كله كان حريصاً على أن لا ينجيب أمل كل سائل ومستفيد، كما حرص الحرص كله على ترأس مجلس اتحاد المجامع اللغوية العلمية في داره عندما أقعده المرض واشتدت وطأته عليه، ليشرف على شئون الاتحاد ويوجهه بتوصياته .

وما أشبه حال الفقيد بالشمعة المضيئة التي تبدد الظلمة وهي تحترق وتذوب مستنفدة كل ما فيها من وقود، فيد المنون لم تحتطف الفقيد طه حسين، كما يقال في مناسبة كهذه، بل ظل يعمل مستنفداً كل ما ادخره جسمه من طاقة حتى انطفأت جذوة ذلك المصباح المنير وانتقلت روحه إلى بارئها .

رحم الله الفقيد وبوأه أرفع الدرجات وحفظ العربية وكتابها وآدابها خالدة إلى يوم الدين .

إني لأتوجه بهذا العزاء إلى مصر خاصة، فالدكتور طه حسين ثروة العرب جميعاً ، وكلنا في هذا المقام يصح أن يكون معزياً ومعزى .

وإني باسم مجمع اللغة العربية بدمشق أتقدم بأخلص مشاعر المواساة والعزاء إلى أسرة فقيدنا الكبير ، آملاً أن يكون في هذه المشاركة من أقطار الوطن العربى كله ما يساعد هذه الأسرة الغالية على الصبر والسلوان .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

●●● قصيدة الدكتور عبدالرازق محيي الدين

رئيس المجمع العلمي العراقي :

يبقيك هذا الذي أحييت من أدب
عفاه من عرفوا منه ومن نشروا
بما استراحوا له من قائم درجت
على سيادته الأوهام والعصر
مرجمين رروا عن رروا صعبا
للغيب، ما استمطروا وحيا، ولا سطروا
مخلقات وأمشاجا لو التحمت
ببعضها ، لتعايبا الطول والقصر
حتى انبريت لها بالشك تقتلها
علما فتحيا بها موعودة قبروا
يد صناع لو امتدت إلى يابس
لأورق العود واحلولى له ثمر
ولو مشيت لظلام الليل تقبسه
تنفس الصبح لم يأذن له سحر
سبحانك الله توّفى النور فاقلده
وتحجب النور عن قوم بهم بصر
يا أيها العيّلم الهدار ما ركبت
رياحه ، أو سجت أمواجه الغزر
أتوا سواحلك الدنيا فخامرهم
أن يركبوا اليم فاجتازوا وما عبروا
مغررين رأوا نشزا فأطعمهم
ومادروا أنه موج وينحسر

السادة الأعلام :

السلام عليكم ورحمة الله

وبعد، فنحن في المصيبة شرع سواء ،
والرزية لفقيه عميد لأدب العربي، رزية الأمة
العربية جمعا. ومع ذلك فإن من واجبي أن
أقدم لمجمع اللغة العربية بالقاهرة تعزية المجمع
العلمي العراقي في بغداد ، وأن أنقل مشاعر
المثقفين في العراق إلى مسامع المثقفين في مصر
وأن أرفع إلى الأسرة المفجوعة تعزية الأسر
العراقية جميعا. ولقد كان بإمكانى بل لم يكن
إلا بإمكانى أن أقف عند جنود الكلمة النائرة
، لأن الشعر مدين لطفه حسين دينا لا ينسى
. ومع أنى تركت نظم الشعر من سنين عديدة
ل ، فقد استشعرت أن لا بد لي أن أقول شيئا
من ذلك .

ولذلك فإنى أستمحىكم عذرا لو جاءت
القصيدة على غير ما ترجون .

حتى مع الناس أحياء بما شعروا
لا الرأى يبلى ولا ذو الرأى يندثر
يأبى الفناء كتاب أنت آسورته
تتلى ، وألواحه آراؤك الغرر
وأنت آية هذا العصر مبصرة
ما تخطى العين أو ما يحدد النظر

وأن غائرة في القاع فاعرة
تهوى بهم للأولى من قبلهم غمروا
وأن من يركب الشطآن عارية
غير الذي هو بالأمواج يأتزر
أنت ابن عشرين ما تلوى فتنتصر
وابن الثمانين ما تطوى فتتكسر
صلب قناتك لم تغمز فإن عجمت
كعبها إناز من غيظ بها شرر
ذودا عن الرأى أو نشر لرايته
بالقول يفلج والأقلام تشتجر
في حين لارأى أجناد وأسلحة
وفي الأساليب مهزوم ومنتصر
وللبیان على الألباب هيمنة
لم يرج إلا لمعقود بها ظفر
وفي القصائد أبكار محصنة
وللأعاريض فحل شاعر ذكر
فليت مستجلبات الشعر قد عقت
وليت من فرطوا في عقدها عقر
ياثاني اثنين للعلياء دونهم
تقعى الدهارير مما آدهما السفر
ألف مضت وهى وحمى فيك مثقاله
حتى ولدت ؛ فهل ألف بها أخر
عهدان من عمر الآداب قد نعا
بالمبصرين هما الأوضاح والخر
وغير ذينك أصدقاء وتسليسة
يزجى بها الوقت أو يحلو بها السمر
ويسألونك ما طه ؟ ولو خبروا
ما عندهم منه ، لاستغنوا بما خبروا

والغيث يشربه الظمان من قلال
وربما سأل الأنواء ما المطر ؟
هذا الذى أنا ألقيه وتسمعه
له ، فلا العود من عندى ولا الوتر
والجامعات التى تعاوك شاهقة
مما ينى ، أو على آثاره عمروا
فالعلم زاد مشاع ليس يطعمه
من أترفوا ويمناه من افتقروا
والرأى صوت مصون ليس يمنحه
من زمروا ويقاضى فيه من جأروا
الرأى بالرأى لا سوط يهدده
ولا زبانية تشلى فتأتمروا
والدين محض قناعات متى أخذت
بالكره آمن من دانوا بمن كفروا
من جردوا الناس من رأى بأن حُجروا
عاشوا الحياة بلا رأى بأن حَجَرُوا
طه تحدث حديث الخلد من كُثب
فالآن أنت بحيث الخبر لا الخبر
الذى ظن ظنا أو تخيله
شيخ المعرة من صدق الروى أثر ؟
أم حكمة الخلق أن ناهى بمفترض
فإن شهدنا يقينا نابنا نخصر ؟
طه ، تحدث فهذا الحفل محتشد
كالعهد يشخص إكبارا ويتتظر
عاشت جيلك أصفى ما تكون له
نبتعا ، وإن ساء وردا بعض من صدروا
للجامعين أبناء ، أب حليت
به الرقاب ، وإن شبوا وإن كبروا

وللمجمعين إخوانا أخ كرمـت
به الأواصر واعتزت به الأسر
تخال من هيبة في الحفل يحضره
أن الملائك في وادي طوى حضروا
لا يرفع الصوت إلا ريث يسمعه
فإن أشاح فبهور ومبتسـر
تغضى اللحاظ على علم ببغيتها
: عنه فلم يوثر إلا خلة نظـر
أقصى الأمانى ممن أغدقوا رتبا
في الفضل إطراة من فيه تبتدر
عاشت على فضله من زاده زمر
وأفضلت ، وأتت من بعدها زمر
من ناقدين على منهاجه نهجوا
وباحثين على أضوائه سفروا

حتى الذين أتوا نهجا يخالفه
عاشوا بأنهم في خلفه اتجسروا
نبت عميم تغشاه من احتطبوا
فأحبوا وسقوا خرا من اعتصروا
مما يهون من خطب ألم بنا
أنا على خطة يسعى بها قدر
وأن مصر على ما عاهدت ووفت
تبنى الشوامخ ما قلوا وما تزروا
يا مصر لى بك قبل اليوم واحدة
أسرى بها النجم واستهدى بها القمر
غنت بمطران فاستهوت قصائده
بأن يعود لها من وصله وطـر
سلمت ولتذهب الدنيا ، وهل ذهبت
دنيا بها مصر والفصحى لها وزر ؟

●●● كلمة الأستاذ محمد رفعت :

عضوالمجمع

((طه حسين وزيرا))

المحزونون جميعا إلى صبر جميل ، وذكرى
عطرة تفيض بمآثر الفقيه وحسناته ؛

واليوم يعز على أيها السادة ويعزنى أيضا أن
أحاول أن أحيط بطرف ولو يسير من سيرة
الفقيه العزيز وزيرا للمعارف ، وقد كان لى
شرف مرافقته فى هذا الدور من حياته ومن
قبله ومن بعده . وطه حسين وزيرا ، لا يقتضينا

سيدى الرئيس ، سيداتى ، سادتى :

إن لفقد الصديق الحميم لحرقة ولذعة يحس
بها الصديق المكلوم عند وقوع النازلة ، ثم
لا يزال فقد العزيز يورقه ويقض مضجعه ،
حتى تدور عجلة الزمن ويتعاقب الليل عليه
والنهار وتنقضى الأربعون أو نحوها ، وبعدها
يستكين الصديق المفجوع ويستكين معه

ألبته أن نرسم له صورة جديدة مكبرة، فهو هو طه حسين قبل الوزارة وبعدها - طه حسين رب القلم، وعميد الأدب وإمام الأحرار المستقلين، وصاحب المعذبين في الأرض، ورائد من رواد الإنسانية جمعاء.

والناس من قديم دأبوا على أن يربطوا بين الوزارة والسياسة واعتبروهما صنوين متلازمين في حين أن الوزراء إذا اجتمعت كلمتهم، وتضامنوا سوياً، من أجل حكم البلاد، لم تعد لهم سياسة خاصة، وإنما عليهم جميعاً أن يخضعوا برودة السياسة التي كانوا يتسربلون بها عادة، وأن يتركوها على عتبة باب الوزارة عند «حافظ الأمانات» قبل ظهورهم على مسرح الوزارة، وذلك لأن عليهم جميعاً أن يلتزموا السياسة العليا للدولة التي هم فيها وزراؤها.

ويقول عالمنا الاجتماعي الأول ابن خلدون في هذا الشأن: إن العلماء من بين البشر أبعد عن السياسة ومذاهبها، والسبب في ذلك كما يقول ابن خلدون - أنهم معتادو النظر الفكري والغوص على المعاني وانتزاعها من المحسوسات وتجريدها في الذهن لتصبح أمورا كلية عامة.

ولذا كان فقيدنا في مسلكه السياسي قد ساير هذا الرأي في مجموعه، فإنه مما لاشك فيه، أن طه حسين أيضاً كان في الطليعة من الكتاب العالمين المرموقين الذين تجاوزت

رسالتهم الفكرية حدود الحيز الإقليمي الضيق، إلى مجالات المد العالمي الكلي؛ فقد كانت السمة الإنسانية هي الغالبة في إنتاجه، كما كانت معظم مؤلفاته مزاجاً قوياً من ذوب حضارتين عربية وغربية، قد يراها بعض الناس حضارتين مختلفتين مولداً ومنهجاً ومادة، ولكنهما كانتا في تقدير فقيدنا فرعين أو شعبتين لنهر واحد تكمل إحداها الأخرى، وكلتاها ترجع إلى نبع واحد هو الإنسانية والمعرفة.

ولست أجده مثلاً أدل على مامتاز به فقيدنا من تصعيد بآرائه إلى قمة النفع الإنساني من قولته المشهورة أمام أحد المؤتمرات العربية المنعقدة بالإسكندرية:

«التعليم للفرد كالشمس والماء والهواء لا حياة له إلا بها».

والشمس والماء والهواء كما يعرف الناس جميعاً عناصر طبيعية متوافرة بنسب متفاوتة في جميع أرجاء العالم، وإن المجتمع أيا كان نوعه ومهما بلغ به العسف لا يستطيع منع هذه العناصر عن أي فرد يسعى إليها. وقد نشر كاتب أمريكي مرموق اسمه «دونالد روبنسون» كتاباً في الخمسينات تحدث فيه عن مائة من أبرز الشخصيات في عالم ذلك الوقت، واختار من بين المائة عشرة من العمالة ذكر في مقدمتهم «ونستون تشرشل» مثلاً للبطولة «ثم» «ألبرت أينشتاين» مثلاً للعبقريّة العلمية، واختار أخيراً فقيدنا «طه حسين» رمزاً للكفاح والشجاعة.

ولست أعرف على وجه اليقين كنه الظروف التي أحاطت فقيدنا عند إسناد وزارة المعارف إليه في يناير عام ١٩٥٠ ، ولكنني أعلم علماً لا يساوره الشك أن الدكتور طه حسين كان قد نشر كتابه عن مستقبل الثقافة في مصر عام ١٩٣٨ ، وقد عالج فيه جميع نواحي التعليم العام والجامعي العالي والديني والرياضي ووصف لذلك كله مختلف الأدوية الناجعة للبرء من العلال التي سادت محيط التعليم مظهر منها وما بطن :

فكان كتابه أشبه بالكرة البلورية في يد الساحر ، رأى فيها المؤلف ملامح المستقبل المضيء الذي كان ينتظره ، والخطوط العريضة لحركة إصلاح جذرية يتولى هو بنفسه رسمها وتوجيهها. وما عليه إلا أن يلوذ بالصبر الجميل حتى تدق الساعة المرتقبة قريباً أو بعيداً. لذلك فإنني أقول إنه حين رشح فقيدنا وزيراً للمعارف ، كان كتابه عن مستقبل الثقافة بيمينه تحت إبطه سائر مؤلفاته الأخرى الأدبية والعلمية والاجتماعية ، وهي جميعاً التي رسمت بأن يكون طه حسين وزيراً للمعارف وكأنه المعنى بقول الشاعر :

أنته الوزارة منقـــــادة
إليه تخرجـــــر أذياها
فلم تك تصلح إلاله
ولم يك يصلح إلالها

ومهما يكن من أمر الذي قيل فيه هذا الشعر ، فإنني أرى في الشطرة الأخيرة من البيت الثاني إجحافاً بحق فقيدنا

وانتقاصاً صارخاً لمواهبه . فقد اضطلع - رحمه الله - قبل الوزارة بمسؤوليات جسام ليست أقل خطراً من الوزارة ، فقد كان عميداً للأدب العربي غير منازع ، وكان مؤسساً ومديراً لجامعة الإسكندرية ، ورئيساً للتحرير في أكثر من صحيفة ومجلة ، وعليها جميعاً أفاض من حماسته وواسع علمه ، ونافذ بصيرته ، مما جعلها منارات يهتدى بها ، وأمثلة تحتذى .

وعلى كرسى الوزارة وجد فقيدنا نفسه لأول مرة يعتلي المركز الأعلى للثقافة في البلاد ، وأراد أن يتفرغ لمعالجة المسائل الكبرى ، فلم يرهق نفسه كثيراً في الشئون الإدارية ،

وهي بطبيعتها أمور مكتبية ميسرة ، قضى فيها فقيدنا وفق مزاجه الخاص غير عابئ بلائحة أو قرار ، ولا خاضع لقانون أو مرسوم . وكانت كلمة الوزير فيها هي العليا . ثم اتجه - رحمه الله - بكامل عزمه ، وماضى عزيمته نحو إنجازاته الكبرى :

وكان أولها قرار المجانية بالمدارس الثانوية ، ، والمجانية في التعليم أيها السادة ، لم تأت طفرة ولا فجأة ، . وذلك أن الحكومات المصرية ، أيا كان لونها ، قديمها وحديثها ، درجت في أحيان كثيرة على التآني والتريث فيما تعتزم تحقيقه من مشروعات . ولست أدري إذا كان هذا التباطؤ مصدره التأكد أو التردد بالخوف أو دقة الحال ، فليكن مصدره إحدى هذه الحصائل أو جميعها وإنما

أذكر أن أول من أشار بقبول عدد محدود جداً من طلاب التعليم العام غير المقتدرين مجاناً ، هو الزعيم الوطني الخالد «سعد زغلول» حين كان وزيراً للمعارف في أوائل هذا القرن ، هذا على كره من مستشاره الإنجليزي « دنلوب » ، ثم سار الوزراء اللاحقون من بعده على هذا المبدأ وبنسب متفاوتة ، إلى أن تولى وزارة المعارف المرحوم « أحمد نجيب الهمالي » في عام ١٩٤٢ ، فهاله أن

وجد ، بعد الدرس والاستقراء ، دخل الدولة من رسوم التعليم في المدارس الابتدائية الأميرية في ذلك الوقت لم يزد على أربعمائة ألف من الخنفيات ، فقرر على الفور مجانية التعليم الابتدائي ، ثم تولى فقيدنا وزارة المعارف عام ١٩٥٠ ، وقد جاء في خطاب افتتاح البرلمان حينئذ أن الحكومة ستقرر مجانية التعليم بالمدارس الثانوية وباقي مستواها ، ومع أن الدكتور طه كان قطعاً صاحب الفكرة والداعي إليها ، فإنه أبي إلا أن يقول في خطاب له ألقاه بنادي المعلمين في الشهور الأولى من وزارته ، قال رحمه الله : وإن كل ما قاتموه ، وكل ما قيل اليوم ، وكل ما سيقال غداً وبعد غد ، عن المجانية لا ينبغي أن يساق إلى ، وإنما ينبغي أن يساق إلى غيرى وإلى الوزراء الذين شجعوني على أن أحتمل هذه المحنة (هذه بطبيعة الحال كانت مجرد تحية ومجاملة لزملائه في الوزارة) ،

أما الحقيقة فقد عبر عنها قبل توليه الوزارة باثنتي عشرة سنة ، قال :

« ليس ينبغي أن نطلب إلى الديمقراطية

أن توزع على الناس أقواتهم وتشبع فيهم اللذة والنعيم وهم هادئون مطمئنون . فهذا شيء لن يتاح لنظام إنساني ، وإنما موعده الناس به اللجنة التي وعد الله بها عباده الصالحين : أما الذي يطلب إلى الديمقراطية ويفرض عليها [فرضاً ، وهو أن تمنح أفراد الشعب وسائل الكسب ، وأوطأ هو التعليم الذي يمكن الفرد من أن يعترف بنفسه وبيئته والوطنية والإنسانية » .

وكان طبيعياً بعد تقرير المجانية في مدارس التعليم العام أن يزداد الطلب على هذه المدارس زيادة غير معهودة مما جعل بعض الناس يتناولون هذه المجانية بالذم والنقد اللاذع ، لأنها فتحت أبواب المدارس الأميرية على مصراعها لكل (من هب ودب) كما يقولون دون تشييد للمباني اللازمة وإعداد للمدرسين نوعاً وعدداً . وقد واجه فقيدنا المشكلة بما عرف عنه من الحزم ومضاء العزيمة فقرر أن يرصد في الميزانية بند خاص لبناء المدارس ، كما أمر بأن يكلف فوراً ملاك المباني أن يقيموا في أبنية المدارس فصولاً دراسية جديدة تتسع للمستجدين من التلاميذ ، وأن يعين خريجو كليات الجامعات في وظائف التدريس رأساً ، أي دون أن يمروا بمعاهد التربية . وكان رأيه في اكتظاظ وما يتبع ذلك عادة من هبوط في المستوى العام للتعليم ، وكان رأيه في ذلك كله أن مدارس التعليم العام يجب أن تكون كالمصفاة لا تبقى إلا على الصحيح السليم .

ثم يأتي موضوع الامتحانات ، وكان فقيدنا يرى فيها ظلماً كبيراً لأطفالنا الذين لا يكادون يحسنون أن يمسكوا بأقلامهم ليكتبوا ، فكيف بهم إذا نحن طالبناهم بقراءة أوراق أسئلة الامتحان وفهم معانيها ثم يكتبون الإجابة عليها . وقد قال فقيدنا في موضوع الامتحانات وضرورة قصرها على أقل القليل :

« أنا أعلم أن الامتحان شر لا بد منه ، ولكن الغريب أننا لا نتخفف من هذا الشر ولا نكتفي منه بأقل قدر ممكن ، وإنما نتزياد منه ونثقل به المعلمين والمتعلمين فنضطرهم إلى الشر ما وسعنا ذلك » . وقد ترجم فقيدنا آراءه في هذا وغيره عندما كنا نجتمع في أمسيات نعقدتها في داره لإعداد قانون جديد للتعليم العام . فكان من أهم مواده ما استقر عليه الرأي في إلغاء امتحانات الانتقال بالمدارس الابتدائية من فرقة إلى فرقة أعلى ، ولا يفوتني أن أشهد برأي فقيدنا في وجوب الاهتمام بتعليم اللغات الأوروبية الحديثة ، فقد أعاد إنشاء مدرسة الألسن ، وجعل الالتحاق بها نتيجة مسابقة في اللغة التي يريد الطالب أن يتخصص فيها . وقال في شأن مسابقة الحضارة الحديثة : « ليس على الشخصية المصرية خطر من الحضارة الحديثة ، ولست أدري لم تضيق شخصية المصريين إذا ساروا سيرة الأوروبيين ولا تضيق شخصية اليابانيين مع أن لمصر من المجد والسليقة ما ليس لليابان مثله ؟ » .

وأخيراً ترك طه حسين كرسى الوزارة الذي شرف اعتلاءه فقيدنا مسددة عامين أو أكثر . وكان هذا في أوائل عام ١٩٥٢ — تركه لالزهد فيه أو لضيق في صدره منه أو لخلاف بينه وبين أحد المقامات السامية ؛ وإنما تركه نتيجة لحادث سياسي داخلي أودى بالوزراء والوزارة جميعها . وهنا أراني مسوقاً إلى مناقشة الرأي الذي قال به العلامة ابن خلدون من أن العلماء هم أبعد البشر عن السياسة ومذاهبها . وهو رأي صواب وسديد في جماعه ، ولكن علينا أن ندرك أن ابن خلدون قد عاش في أوائل القرن الرابع عشر الميلادي — أي في أواخر العصور الوسطى حين كان العلم كالدين له قداسته وحده . وكان رجاله يعيشون غالباً في بروج مشيدة بمنأى عن السياسة ومذاهبها :

أما في الأزمنة الحديثة حين ظهر في العالم أهم الاختراعات التي رفعت من شأن الإنسانية إلى آفاق جديدة بعيدة المدى من العلم والمعرفة تلك هي المطبعة الحديثة ذات الأحرف المعدنية المتحركة التي أنجزها « جوتنبرج » الألماني في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، فإنه بفضل هذا الاختراع استطاع الناس أن يقرأوا كثيراً وأن يكتبوا كثيراً وأن يتناقشوا ويجادلوا طويلاً ، وأن يتبادلوا الآراء في الصحف والرسائل والكتب في يسر وشغف .

وعند ذلك خرجت السياسة من أبراجها وتلقاها الناس كما يتلقون خبرهم اليوم وشرابهم

وأداتهم ، والرأى عندى أنه لا بأس بالسياسة
يمارسها الناس ، ويحتدم حولها النقاش ، وتزكى
فيهم روح الاجتهاد والنافس البناء ، ولكن
الخطر كل الخطر فى أن تتدخل السياسة فى
طريق تقدم العلم والمعرفة ، وقد شكنا فقيدها
من تدخل السياسة فى شئون التعاليم فقال :
أحمد الله على أن السياسة وظروفها لا تخيفنى ،
وعلى أنها لم تستطع قط أن تمنعنى من قول
الحق حين يجب أن يقال ، وفى ذلك الخير
دائماً ، وقد يكون فيه الشر أحياناً ، ولكن الله
عز وجل يحمى على الخير والشر جميعاً . وقد
أن الوقت الذى يجب أن ترتفع فيه الوزارة
فوق ظروف الحياة العارضة وما يكون فيها من
مدالسياسة وجزرها وانحرافها يوماً ذات

اليمن ويوماً ذات الشمال : أن الوقت الذى
يجب فيه أن تأخذ الدولة أمور التعليم بالحد
وتنظر إليها على أنها فوق الأهواء السياسية
وفوق شهوات الساسة .

رضى الله عن طه حسين وأرضاه وأجزل
له المثوبة والعطاء ، وبارك لنا فيما تركه وأسداه
لمصر والعروبة كافة من فتوح جديدة وكشوف
غير مسبوقه فى آفاق العلم واللغة والأدب عامة
« أرانى قد قصرت فى حق صحبتى

وقد عقدت هوج الخطوب اسانبا

لقد غاب عنا ذا العسيد ولم نجد

له بين أعلام المجامع ثانيـــــــــــــــــا

له الأثر الباقي وإن كان نائيبا

فما زال بالروح الأمنية دانياس(*)

●●● كلمة الدكتور محمد كامل حسين :

عضو الجمع

« طه حسين مفكرا »

عليها أشد الحرص ، لأن الإنسان إذا قربت
حياته من غروبها فلن يجد شيئاً يسعد به إلا هذا
الود الصافى الذى يتبادل مع قلة من صفوة
الأوفياء . . فإذا كان هذا من ألوان السعادة
عند الشيوخ فأنا من أسعدهم ، عرفت أحمد لطفي
السيد فوجدت الحكمة ورجاحة العقل وسداد
الرأى ، ونوعاً من السمو الخلقى كان يعرفه
ويقدره آباؤنا وأجدادنا ، ولم يعد له فى العصر

سيداتي سادتي
جمعتنى بالدكتور طه حسين صداقة من
نوع نادر بعدنا بها عن ضجج الحياة وعن مشاكل
الساعة حتى حين تكون ملحة ، وكنا نعكف
على الهروب من الحياة المحمومة التى يحياها
الناس حولنا وكأننا نريد بلقاءنا أن نجد — على
الأقل فيما يتعلق بى — السكينة والتأمل والإيحاء ،
ولذا عثر أحدكم على مثل هذه الصداقة فليحرص

الحاضر شأن كبير . وعرفت عبد الحميد بدوى فكان الذكاء الوهاج والعلم الواسع العميق ، ويكفينى أن رجلا مثل ظفر الله خان رئيس محكمة العدل الدولية أخبرنى شخصياً أنه كان يعد عبد الحميد بدوى الأب الروحى له ، ثم عرفت طه حسين فوجدته جمع إلى فضائل صديقيه هذين قوة فى العزيمة لا تزيدها المقاومة لإلشدة ، وصلابة فى الرأى حين تتحول المقاومة إلى مناوأة ، حتى إذا صرح الشر وأصبحت المناوأة عداً سافراً وجدت له قوة خارقة .

كانت فى أعماله مثل المفكرين وكانت فى تفكيره صلابة العاملين ، فاستطاع أن ينجز أعمالاً كنا نحسبها أماني عزيزة بعيدة المنال فأصبحت بفضل جهوده حقائق واقعة .

وأظهر صفاته العقلية صفاء الفكر لا يحجبه كدر ولا اضطراب ، وصفاء الفكر عندنا نحن المشتغلين بالعلوم الطبيعية أكسب الصفات وأعظمها وأدعاها إلى النجاح ، وأذكر أنى كنت أقول لطلبتى فى كلية الطب «خير لكم أن تكون فكرتكم واضحة وإن تكن خطأ من أن تكون غامضة تحتل الصواب» . وأذكر أن عالماً باكستانيا اسمه عبد السلام هو الآن من أكبر علماء الذرة ، سئل عن نظرية بعينها فقال : لا أظنها صحيحة لأن الطبيعة تحل مشاكلها حلاً رشيقاً . هذا ما يجب أن يصدق على الإنسانى والآداب كما يصدق على العلوم . فقد مضى العهد الذى كان فيه الغموض دليلاً على عمق الفكرة ، والغموض ليس دليلاً على عمق الفكرة ، لأنه لا يلتوى على القارى وحده ، وإنما يلتوى

على المؤلف أيضاً ، فيخرج من غموض إلى غموض ، ولا أحسب أن أحداً قرأ للدكتور طه حسين ثم سأل نفسه بعد ذلك ماذا يريد أن يقول . وليست المسألة مسألة نصاعة الأسلوب ، فهذا مستطاع ، ولكنها نصاعة الفكرة التى تجذب إليه الناس :

وكان تفكيره حاسماً ، تجده حينما يحتاج الحدل فى أمر من الأمور ، ينصت ثم يدلى برأيه فإذا هو القول الفصل يصعب دحضه أو التعقيب عليه حتى من مخالفيه . وكان تفكيره نفاذاً تحيط به الصعاب من كل جهة وتعترضه أمور كثيرة متناقضة ، وآراء مضطربة فيستطيع أن ينفذ منها إلى نتائجها حتى إذا جاءت هذه النتائج وجدتها كما ظن كأن قد رأى وقد سمعاً ، وخلا تفكيره من العيب الذى أود أن أسميه التفكير الهش أو التفكير المنفوش كالعن ، على حد التعبير الإنجليزى ، وهو التفكير الذى تراه من بعيد فتحسبه شيئاً عظيماً حتى إذا جئته وضغطت عليه وجدته هزياً ضعيفاً ، ولم تجد له صلابة ولا عزماً . هذه الصفات فى تفكيره جعلته شخصاً يختلف عن كثير غيره من المفكرين وأعتقد أن الدكتور طه يصح أن نقول عنه إنه اخترق حاجر الصوت فى المجال الفكرى فبلغ فيه آفاقاً أوسع ، وأصبح بينه وبين الفكر الوسط فرق لا يتبينه بسهولة ، مع أنه فرق واضح بين المفكر الأصيل والمفكر الوسط ، وإن ظن بعض الناس أن أعمالها متشابهة إلى حد بعيد ، ولكن أحد التفكيرين خصيب والآخر مجذب :

حاولت أن أثبت أن المحور الذي دار عليه تفكير طه حسين وأعماله ، فإذا هو إباؤه أن يدعن للنظم المستقرة ، هذه أكبر صفاته . والنظم المستقرة هي النظم التي يحرص أهلها على إبقائها لما يتمتعون به في ظلها من ميزات لا تؤهلها لهم كفايتهم ولا الجهد الذي يبذلونه أطلق الغربيون على هذه النظم كلمة «establishment» هذا النظام المستتب كان يكرهه طه حسين بطبيعته ، يرى فيه خولا عقلياً ويرى أنه مخالف لطبيعة الأشياء ولطبيعته بصفة خاصة وكثير من الناس يحبون أن يتخلصوا من النظم المستتبة ، ويسمون أنفسهم المجددين ، والواقع أن كثيراً من هؤلاء المجددين ليسوا إلا محافظين على الحديد ، وليسوا بمجددين بالمعنى الحق ، فتراهم إذا وصلوا إلى أولى خطوات التجديد قنعوا بها وسكنوا إليها . على أن التجديد يجب أن يكون حركة مستمرة ولا أرى فرقاً بين الذين يتهافون على العلماء الأجانب ويتمسكون بهم وينقلون عنهم ، وبين من ينقل عن ابن قتيبة وأبي هلال ، فيقال هؤلاء متأخرون ، ومحافظون ، وأولئك مجددون ، والواقع أن عقليتهم واحدة ، وأنه لأفضل للذي همه النقل عن المؤلفين الأجانب المحدثين ، والذي ينقل عن القدماء . هؤلاء ليسوا بمجددين ، وإنما هم محافظون على الحديد لحديثه ، وليس لهم أن يعيبوا على آخرين أنهم يتمسكون بالقديم لقدمه ، أما طه حسين ، فكان مجدداً دائماً ، والتجديد يجب أن يكون مستمرا ، وإلا فقد أهم خصائصه . وكثير من المحافظين يرون أن الاستقرار شيء لا بد منه

لحياة الناس السوية والحياة الأمم ، ولكن الاستقرار نوعان : نوع قديم ، الثبات فيه كثبات الأهرام ، ونوع جديد ، الثبات فيه كثبات الطائرة ، ثباتها في حركتها فإذا وقفت سقطت ، وهذا هو التجديد الحقيقي الذي حرص عليه الدكتور طه حسين ، لأنه كان من طبيعته .

والذين يسمون أنفسهم مجددين وليس من طبيعتهم التجديد يجدون أنفسهم بعد قليل لا يستحقون هذا الاسم أبداً .

بدأ الدكتور طه حياته الفكرية في أوائل هذا القرن حين كانت الحياة الفكرية في مصر مضطربة حقاً كنا لا ندري ما نفعل . كان منا المحافظون الذين يريدون أن يبقوا على القديم ولهم الحق في ذلك . كانوا يريدون أن يحافظوا على قوميتنا وشخصيتنا وهذا شعور نبيل ، ولكن تبين لنا بعد قليل أن هذه طريق مغلقة ، ثم كان منا من أخذ المدنية الغربية عن أهلها اختصاراً للطريق ولكنهم تبينوا أنها لن يكون لها بذور في نفوسهم ، فعادوا إلى اللغة العربية وإلى الثقافة العربية ، ولم يكونوا قد عرفوا قبل ذلك مداها وقوتها ، فلما عادوا إليها لم يستطيعوا استيعابها تماماً ، فكانوا سطحيين في كلا الثقافتين وكان شأنهم والثقافة العربية شأن الفرسان الذين قيل فيهم : «لم يركبوا الخيل إلا بعدما كبروا» ومن حسن حظ الدكتور طه حسين أنه أخذ الحضارة العربية أخذاً متيناً ، ألقها وأغرم بها ، وظل طول حياته مفكراً عربياً ، ثم خرج من هذا النطاق ولا أقول أنه خرج عن الثقافة العربية

ولا أخرج منها ولا أخرج عنها، وإنما أخرج بها إلى آفاق أخرى كما كان يجب أن تخرج أولاً السبات الذى أصابنا ، وهو السبات الشتوى الذى امتد عدة قرون ، والسبات الشتوى ظاهرة فى الكائنات حين تكون البيئة غير مواتية للحياة الطبيعية .

على كل حال تكونت حولنا أسوار كان يجب أن نخرقها قبل أن نصل إلى الآفاق لا أقول العربية وإنما الآفاق التى كان يجب أن نصل إليها أولاً هذا السبات الطارىء .

فالدكتور طه امتد بتفكيره إلى الآفاق الحديدة ، وكان عليه أن يهدم بعض هذه الأسوار فكان أن فعل فعلته الكبرى التى هى كتاب الشعر الجاهلى ، وهو عندى نقطة تحول ، لا لما فيه من آراء قد تكون صواباً وقد تكون خطأ .

كل نهضة فكرية فى العلوم أو الآداب يسبقها هذا الهجوم لعل الثقافة القديمة ولكن على الأسوار التى أقيمت حول هذه الثقافة فنحن أن تنمو نموها الطبيعى .

شهدت الدكتور طه حسين مع كثير من المفكرين الغربيين ولا أقول المستعربين ، فهو لاء كانوا يحجون إليه جميعاً حين يحضرون إلى مصر ، ولكنى أتحدث عن المفكرين غير المستعربين وكان له منهم أصدقاء كثيرون منهم هريو (Periot) ، ودو هاميل (Duhamel) وكوكتو (Cocteau) وغيرهم ، وتوطدت صداقته باندريه جيد (Andr'Gide) ، وكنت

أظن أن صداقتهما ترجع إلى حبهما للحقيقة السافرة مهما يكن من غضاضة أو مهما يكن فيها من خروج على العرف ، وكلاهما كان يحب الأسلوب الناصع السهل الذى يودى إلى غاياته بغير تعسف أو عناء .

كنت أرى الدكتور طه لا يحاول أن يبهز هؤلاء العلماء والمفكرين بما يقوله لهم عن ثقافتهم هم ، فذلك يكون « كبضع التمر إلى هجر » وليس من المعقول أن يفخر عربى حين يلقى الأجانب بأنه يعرف ثقافتهم كما يعرفونها هذا ليس طبيعياً ، ولكن الدكتور طه كان يبهزهم من حيث هو مفكر عربى أصيل استطاع أن يمتد بتفكيره إلى أن يوازى التفكير الغربى من غير أن يفنى فيه .

والدكتور طه - على كثرة ما علم من الثقافة الغربية - لم يدع تفكيره يفنى فيها أبداً ، ولو فنى فيها ما حفل به أحد من هؤلاء العلماء ، ولكنه ظل عربياً صحيحاً يختار من الثقافة الغربية ما يوافق طبعه ، يرتوى منها كما تروى النباتات ، فتنبت على أحسن وجه ، ولم يقتبس من العلماء الغربيين آراءهم كما هى .

ولا يعجبني أبداً بعد أن يبين لنا طه حسين طريق الجمع بين الثقافتين العربية والغربية أن أرى قوماً منا ومن كبار مفكرينا من بهرتهم المذاهب الأدبية كالوجودية والرمزية ، فعكفوا على كتابات من هذا النوع أو ذاك .

وأذكر أن « لطفى السيد » قال لى إنه كتب إلى طه حسين - حين كان يدرس فى باريس - يحذره هذه المذاهب ويقول له : « احذر من

كل شيء آخره (ism) ، ولم يكن الدكتور طه في حاجة إلى هذا التحذير ، لأنه بطبيعته ، يأتى أن يتقيد بمثل هذه القيود .
وكان يجب على الكتاب المصريين أن يأخذوا من الحضارة الغربية لا مادتها ، ولكن أسلوبها . وأرجو أن يتعظوا بهذا المثل الذى ضرب به طه حسين للجمع بين الثقافتين ويسبروا فى الطريق الصحيح :

عاهدتكم أن أتكلم عن تفكيره إلا أنى سأعرض لإحدى نواحي حياته ، وهى التى تكلم عنها الدكتور مذكور ، وهى الكفاح ، ولا أزيد عليها كثيرا ، وإنما أقول إنى قلت للدكتور طه يوما من الأيام : الناس منك فريقان ، فريق يحبك جدا ، وفريق لا يطيق أن يسمع اسمك ، وإن أحد هؤلاء يرى أنك تعد الأذهان لثورة كالثورة الفرنسية ، وأنتك تعمل ما عمله (فولتير) (روسو) والانسىكلوبيديين ؛ فدهش الدكتور طه لهذا ، وقال إنى لا أغضب أن يوصف عملى بمثل هذا الوصف .

لم تكن هذه الدعوة إلى الحرية لترضى أولى الأمر ، وكان الملك (فؤاد) له حنكة سياسية فأدرك أن مثل هذه الحرية وخاصة إذا كانت فى الجامعات تؤذى النظام المستتب الذى هو رأسه وعماده وعنوانه ، فعزم على ألا يترك الدكتور طه حسين يقوم بهذه الدعوة . وذكر الدكتور (مايرهوف) أنه قال للملك فؤاد : إننى لا أتصور مجمعا للغة العربية ايس فيه طه حسين ، ومع ذلك رفض الملك أن يجعل طه حسين من بين مؤسسى مجمعنا هذا .
ثم كانت محنة خروجه من الجامعة

وانضمت الأمة كلها للدكتور طه حسين ولكن المسئولين انقسموا قسمين : فريق على رأسه لطفى السيد يدعو إلى حرية الفكر ، وفريق له رأى عجيب جدا يسه عنى أن أردده هنا ، كانوا يقولون ألاباح للملك أن يغضب على مدرس نحو وصرف . إلى هذا الحد بلغ الجهل ببعض المسئولين الذين لم يقدرُوا ما فى هذه المحنة من أثر على الحياة الفكرية فى مصر :
[] ثم جاء الملك فاروق ، ولم يرث عن أبيه الحنكة السياسية ، ولكنه ورث عنه كره الدكتور طه حسين ، كرها يكاد يكون (حساسية) ، وأظهر ذلك فى مواقف عديدة . وكنت أعلم من خبرة شخصية أن حظ الملك فاروق من الآداب الملكية غير موفور ، ولكنى لم أكن أظن أن يعلن الملك ذلك فى صراحة غير لائقة .

ثم دارت الأيام ، وأصبح طه حسين وزيرا للتعليم ، ووجد فى ذلك فرصة لعمل الإصلاحات التى حدثتكم عنها الأستاذ محمد رفعت ، ولكن الملك قابله بمقابلة جافة جدا عندما ذهب لحلف اليمين ، فكان أحد زملائه يقول : لو قابلنى الملك هذه المقابلة لاستقلت فى اليوم التالى . وهذا يدل على أن هذا الزميل لم يعرف ولم يكن له أن يعرف حقيقة الأمر ، لأن الدكتور طه فرح جدا بهذا اللقاء الخاف ؛ لأنه أقنعه أن الملك هُزِمَ ، وأنه أحسن بالهزيمة .

ثم جاءت حفلات الجامعة المصرية ورفض الملك أن يعطى طه حسين (الباشوية) ، وأكد لكم وأنا صادق فى هذا - أن الدكتور طه لم

بثأره قولاً بعد أن أخذ بثأره عملاً ، فلم يكن
الدكتور طه في مدحه المشرق للملك إلا صعيداً
بأحسن معاني هذه الكلمة .

وفي ختام كلمتي أود أن أشير إلى أن من
الناس أعماله جيدة ، فإذا نظرت إليها في مجموعها
وجدتها أقل من أجزائها ، فإذا نظرت إلى
حياته كلها وجدتها شيئاً لا يؤبه له ، كذلك الشعراء
يعجبك البيت والبيتان في القصيدة ، وتكون
القصيدة مع ذلك ضعيفة ، فإذا نظرت إلى
الديوان كله لم تجد شيئاً يذكره .

أما الدكتور طه حسين فكان على العكس
من ذلك تماماً ، أعماله جيدة من غير شك
، ولكن مجموعة أعماله أضخم وأعظم من
أجزائها ، حتى إذا نظرت إلى حياته كلها ،
وجدتها حقاً ملحمة رائعة ، أسطورية
لأنظير لها .

يكن يحرص على هذا اللقب بالمرّة ، ولكن
رئيس الوزارة قال : إن رفض الملك إعطاء
هذا اللقب للدكتور طه حسين يعدّ عدم ثقة
بالوزارة ، فمضغ الملك في المرة الثانية وأعطاه
اللقب .^١

وقد عيب على الدكتور طه ، أنه أسرف
في مدح "فاروق" ، والواقع أنه مدحه بعد أن
أخذ منه عنوة كل ما يمكن أن يعطيه الملك إياه
ولم يكن له شيء يرجوه بعد ذلك من الملك ،^٢

وتفسير ذلك عندى أنها «شنشنة» نعرفها
من إخواننا أهل الصعيد ، وأرجو أن يغفروا
لي ذلك ، [لأنني لا أقوله ذماً ، وأهل الصعيد
حين يتغلب ضعيفهم على قويهم ، يحرص
على أن يذهب إليه ويمدحه مدحاً مسرفاً
يدرك كل الناس أنه نوع من التشفى ، وأنه أخذ

●●● كلمة الأسرة للمهندس الأستاذ عبد المجيد حسين

شقيق الفقيد

ماذا أقول في شكركم ؟ فأنتم تحتفلون
بذكرى فقيد لكم عزيز عليكم ، كان
بمجموعكم الموقر حفيماً كما كان للغة التي
تمثلونها نصيراً وانياً ، ولئن كانت صلة
الأسرة بالفقيد صلة رحم وقرابة ونسب ،

السيد نائب الرئيس ،

سادتي أعضاء الجمع ،

سيداتي ، سادتي

ليس بالشرف القليل أن تتاح لي فرصة
الوقوف بينكم لأتحدث إليكم .

حفاكم هذا الجامع الكريم، خطباء وسامعين
وافدين ومقيمين .

إن روح الفقيد اتر فرف عليكم من عليها
لتهدى إليكم على الرضى والعرفان ، ولتلهبنا
جميعا جميل الصبر والسلوان :
والسلام عليكم ورحمة الله

فإن صلتكم به أكثر عمقا وأبقى أثرا ، إذ أنها
صلة فكر وروح :

وإن لم يكن بد من أن تكون للأسرة كلمة
فكلمتنا هي تحية إكبار وإجلال لهذا الوفاء
الرائع ، الذى ضربتم له المثل الأعلى في

